بثْلات شائكة:

نصوص مسرحية وقصصية ومُمسرَحة

أحمد جرادات

رخصة المشاع الإبداعي Creative Commons License BY

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الايداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(2023 / 2 / 1312)

812.9

جرادات، احمد حسن علي
بتلات شائكه / احمد حسن علي جرادات.- عمان:المؤلف،2023
( ) ص .
ر.إ. : 1312 / 2 / 2023
الواصفات : /المسرحيات العربية//الأدب العربي//العصر الحديث/

يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه و لا يعبّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى.

ISBN 978-9923-0-0618-4 (ردمك)

الطباعه: al-safir PRINTING PRESS
مطبعة السفير

إهداء

الى عائلتي:

خزامى وزينة وكندة ويمامة وناصر

قُصاصة من ذكراي

في حياةٍ جُلُّها باتَ ورائي

عِرْفان

لذكريات مَهبط رأسي، بيت العائلة القديم في قريتي بشرى، المشرعة أبوابه على الأفق الرحب، عند نقطة العناق بين الأرض والسماء، والمفتوحة سماؤه على الكون اللانهائي، الذي وُلدتُ ونشأتُ فيه وشهدتُ في بيئته الأوسع الكثير مما ورد في هذه النصوص من أحداث وشخوص وأماكن وأزمان وأوضاع وعلائق اجتماعية وحتى مفردات أهلها، شكَّلت، جميعاً، خزَّاناً أدبياً غرفْتُها منه وسكبْتُها في هذه الأطباق الورقية.

وبعد، فإنني أتقدّم بوافر الشكر وعظيم الامتنان بشكل خاص إلى الصديق العتيق الأُستاذ الدكتور سمير قطامي، الكاتب والناقد الكبير، أُستاذ الأدب العربي في الجامعة الأردنية على قراءته المتمعِّنة لهذه النصوص وكتابته المعمَّقة والصادقة للمقدمة التي زيَّن بها فاتحة هذا الكتاب، والتي بذل فيها جهداً مضاعفاً، إذ كتبها مرتين، بعد أن فقدَ نسخته الأصلية. ومع ذلك فإنه، بالتزامه الأخلاقي المشهود وتواضعه الجمّ وذائقته الأدبية الرفيعة وصدقية تقييمه وإخلاصه لمهنته، لم يتوان عن كتابة نسخة ثانية من جديد .. إليه عالي التقدير وفائق الاحترام.

فهرس المحتويات

تنويه 9

مقدمة: الأُستاذ الدكتور سمير قطامي 11

نصوص مسرحية 21

ورشة عمل كورونية: كوميديا رمادية من فصل واحد و سبعة مشاهد 23

قطام و عبدالرحمن 51

وزيرنا الجديد إبراهيمي ليبرالي 69

نصوص مُمسرحة 85

حكاية موت عقلة السهيان 87

المطربة و الرقيب: مَشاهد 103

نصوص قصصية 125

أُم البيار 127

مواسم أبو موسى المرضي 141

الباكور 159

العثور على رسالة مفقودة من مذكرات رفيق مغمور 173

ومضة: مَن أنا؟ 191

تنويه

بـين أيديكـم، أو عـلى شاشـاتكم، أعـزائي القراء/عزيـزاتي القارئـات نصـوص أدبيـة أودُّ قبـل فتـح صفحاتهـا أن أُسـجِّل ملحوظتـيْن:

الأولى: أن هـذه النصـوص تتضمـن وقائـع أو أحداثـاً أو شـخصيات أو أماكـن تاريخيـة أو حتـى كيانـات سياسـية، لكنهـا تظـل نصوصـاً "لاتاريخيـة" إن صحَّ التعبـير. فهـي قبـل كل شيء أعـمال أدبيـة وليسـت مقـالات رأي أو بحوثـاً أو تحقيقـات صحفيـة اسـتقصائية. وتعلمـون حضراتكم/حضراتكـن أن المؤلـف في الأعـمال الأدبيـة، كالمسرحيـة والروايـة والقصـة القصـيرة والقصيـدة، لا يقـول، ولا يقـوِّل شـخوصه، بـل إن شـخوصه هـم الذيـن يقولـون- وهـذا بالطبـع لا يعنـي أن المؤلـف محايـد أو ليـس لـه موقـف، فهـذا معنـاه مـوت المؤلـف، المقولـة "الموضـة" التـي شـاعت والتـي لا أؤمـن بهـا، بـل اعتبرهـا خيانـة لرسـالته، بغـض النظـر عـن ماهيـة الرسـالة. وإذا كان كلام اللـه سـبحانه حـمَّال أوجـه، قـال الإمـام عـلي، فـما بالكـم بـكلام البـشر؟ ولـذا، فـإن مـن يخطـر ببالـه إسـاءة اسـتخدام هـذه النصـوص كذريعـة لتحقيـق أغـراض سياسـية أو دينيـة أو غيرهـا أو لغايـات في نفـوس "اليعاقبـة" (مفردهـا يعقـوب، والإشـارة هنـا إلى النبـي يعقـوب، صاحـب الحاجـة الأخـرى في نفسـه، وليـس إلى الحركـة السياسـية في بريطانيـا التـي كانـت تؤمـن بالحـق الإلهـي للملـك Jacobitism)، لمطـاردة فريسـة أو الظفـر بطريـدة أو "صيـدة"، مثـل صيـدة حمـد بـن جاسـم السـورية التـي أفلتـت مـن مخالـب وأنيـاب صياديهـا، يِـركي بارودتـه (أي يضـع بندقيتـه جانبـاً) "بليـز" please.

الثانيـة: أن هـذا الكتـاب يضـم مجموعـة مـن النصـوص المختـارة: خمـس مسرحيـات وأربـع قصـص قصـيرة. المسرحيـات الثـلاث الأولى، ربمـا يـرى بعضهم أنهـا لا تفـي بالقواعـد الكلاسـيكية المكرَّسـة للمسرحيـة كلوْن/جنـس أدبي مـن أقـدم الألوان/الأجنـاس الأدبيـة. والمسرحيتـان الرابعة والخامسـة كانتـا في الأصل مقالتـيْن سرديتـيْن نُشرتـا في كتـابي السـابق الموسـوم بـ "جـداول ثقافيـة: فانتازيا الحقائـق البديلـة"، أوحـى لي، أو أغـراني، تكوينهـما و"جوُّهـما" المسرحـي بتحويلهـما إلى مسرحيـات، فقمـت "بمسرحتهـما". ربمـا يقـول آخـرون إن هـذه ليسـت سـوى عمليـة إعـادة تدويـر لمـواد مسـتعملة، أو نصوصـاً "هجينـة" hybrid لا تمـتُّ إلى المـسرح بصلـة. ولا ألومهـم عـلى مـا ذهبـوا إليـه. ولهـذه الاعتبـارات ارتأيـتُ أن أعتـبر جميـع هـذه المختـارات "نصوصـاً"، وأن أضعهـا تحـت عنـوان: "نصـوص مسرحيـة وقصصيـة ومُمسرحَـة"...

ما اقتضى التنويه!!

مقدمة: الأستاذ الدكتور سمير قطامي

عزيـزي القـارئ، بـين يديـك كتـاب يحتـوي عـلى مجموعـة مـن النصـوص المسرحيـة والممسرحـة والقصصيـة، كتبهـا الصديـق والزميـل العتيـق أحمـد جـرادات، ذلـك المناضـل الثـوري الصـادق الـذي قلَّـما تجـد هـذه الأيـام مثيـلاً لـه في الالتـزام والصـدق والصمـود، وهـو أديـب وسـياسي ومفكـر منشـغل بهمـوم شـعبه وأمتـه، وبقضايـا الإنسـان أنَّى كان. وكتابـه هـذا الـذي حـيَّرني في تصنيفـه، يمـزج فيـه المسرحيـة الطليعيـة، بالـسرد القصـصي، بالاسـترجاع التاريخـي لأحـداث وشـخوص، لإيصـال رسـالته النضاليـة التـي أراد منهـا وبهـا إيقـاظ النـاس مـن نومهـم أو خدَرهـم، وذْفعهـم إلى التفكـير العقـلاني الحـر، ليخرجـوا مـن حالـة النـوم عـلى الأضاليـل والأوهـام والخرافـات إلى عـالم النـور والكشـف عـما قضـوا حيواتهـم وهـم يظنونـه حقائـق ثابتـة مقدَّسـة، لا يأتيهـا الباطـل مـن أي بـاب .. وهـو يمـزج في ذلـك بـين السياسـة والأدب والنضـال والتنويـر بأسـلوب المفارقـة وبسـخرية لاذعـة.

يقـدِّم أحمـد جـرادات في هـذا الكتـاب نصوصـا مسرحيـة ينقلنـا بهـا عـبر التاريـخ العـربي والعالمـي، إلى واقـع جديـد يفـرض عـلى القـارئ أو المشـاهد أن يتسـاءل ويعيـد النظـر بمـا اسـتقر في عقلـه مـن معلومـات وحقائـق، أو مـا عُـدَّ حقائـق، وهـي في الواقـع أوهـام ومبالغـات تجـافي الحقيقـة وتفتقـر إلى الحـد الأدنى مـن المنطـق. وقـد قـدَّم لعملـه بقولـه: "إن هـذه النصـوص تتضمـن وقائـع أو أحداثـاً أو شـخصيات أو أماكـن تاريخيـة أو حتـى كيانـات

سياسية، ولكنها تظلُّ نصوصاً تاريخية، وهي أعمال أدبية حمَّالة أوجه، يمكن تفسيرها حسب رغبة القارئ أو المشاهد."

فالكاتب موقن، بوعيه السياسي، أن ما تنطوي عليه نصوصه من دلالات وإشارات ومغامز، يمكن تفسيرها أو تأويلها واستغلالها حسب ميل القارئ أو رأيه المسبق، لتسديد سهامه إلى الكاتب واتهامه سياسيا أو دينيا أو اجتماعيا، وهذا ما يمكن أن نجده بين سطور هذه الأعمال .

وفي الحقيقة أن السياسة والنزعة الإنسانية لم تفارقا صفحات هذا الكتاب من أول سطر فيه، بإشارته، مثلاً، إلى "صيدة" حمد بن جاسم، رئيس وزراء قطر سابقاً، واستراتيجية حرب الناتو الهجينة ، إلى آخر سطر في الكتاب عندما أذَّن الأب في أُذن ابنه صعب قائلا: "سيكون لك من اسمك نصيب" .. ويبدو لي أن صعباً هذا هو الكاتب نفسه الذي عانى مرَّ المعاناة في السجون والمعتقلات، ومن إغلاق أبواب العمل والتوظيف والسفر في وجهه.

سيلاحظ القارئ أن قدراً كبيراً مما جاء في هذا الكتاب هو صدى لما عاناه الكاتب وعانتْه البشرية من فيروس الكورونا الذي ضرب العالم كله، وقيَّد حركة البشر طوال عامين سوداويين، تاركاً آثاراً سيئة في نفوس الناس، يستوي في ذلك الذين أُصيبوا وعانوا ونجوا بصعوبة، أو الذين توفّوا أو فقدوا أعزاء وأحبة وأقارب، خلال اجتياح الوباء للعالم .

يبدأ الكاتب عمله الأول المعنون: "ورشة عمل كورونية"، بأشخاص يصفهم بالكورونيين، وبأحداث غرائبية، بما يعيدنا إلى مسرح اللامعقول أو المسرح الطليعي أو البريختي الذي تتداخل فيه الأحداث والأزمان والأماكن والشخوص، ليقول الكاتب ما يريد على ألسنة الأشخاص الذين بعثهم إلى الحياة، أو من خلال الأشخاص الذين خلقهم هو ليوصل رسالته في نقد الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وبأسلوب تهكمي ساخر، مشيراً إلى أحوال الآباء والأجداد البائسة، وظروف معيشتهم القاسية وأوضاعهم السياسية السيئة، موظفاً آراء بعض الأدباء والسياسيين والشعراء الأردنيين، بأسلوب المفارقة والسخرية، ليعرض لنا واقع الإنسان المعاصر الذي غدا ألعوبة بأيدي القوى العظمى الخفية المتحكِّمة بكل ما في العالم، والتي يأتمر بأمرها حكام دولنا وحكوماتها، معرِّجا على أبي بكر البغدادي ودوره في إقامة الخلافة الإسلامية وجرائم داعش، وعلى الحلاج وصلبه بسبب آرائه، وعلى ابي محمد الجولاني بفلسفته التي يبرر فيها القتال مع الأمريكان ضد الروس الكفرة ، وعلى عدنان العرعور الذي أعلن أن الكورونا هي عقاب من الله ضد الصينيين الملاحدة، وعلى أبي مالك التلي وأعماله الإرهابية باسم الدين .

لقد طوَّف بنا أحمد جرادات بين الماضي والحاضر، واستحضر شخصيات دينية وتاريخية وسياسية، وعرَّج من خلال ذلك على أحداث وحوادث وقضايا سياسية، وعرضَ لممارسات اجتماعية وعادات سلبية، كما عرض لنظرية مالتوس، العالم السكاني، في الانتقاء والاستغناء عن السكان غير

المنتجـين، ولنظريـة داروين(البقـاء للأقـوى)، ولاقـتراح الكاتـب الإيرلنـدي السـاخر(جوناثان سـويفت) لحـل مشـكلة الأطفـال الإيرلنديين الفقـراء، ببيعهم ليكونـوا لحـماً مشـوياً شـهياً عـلى مائـدة الأثريـاء، قارنـاً ذلـك بقصيـدة أحمـد فـؤاد نجـم (بوتيـكات) التـي يقـترح فيهـا إماتـة كل الجوعانـين والفقـراء لحـل مشـكلة الفقـر والجـوع.

قـدَّم أحمـد جـرادات في مسرحيتـه الأولى أجـواء كورونـا وتأثيرهـا عـلى النـاس والسياسـيين والاقتصـاد والعلاقـات الإنسـانية، وعـلى أسـلوب الدولـة في التعامل مـع الوبـاء بـين الفتـح والإغـلاق، والتعليـم عـن قـرب وعـن بعـد .... وكل ذلـك بأسـلوب نقـدي جميـل ومعـبر، يدفـع القـارئ أو المشـاهد إلى التفكـير والتأمـل في مـا حـدث ومـا يحـدث اليـوم .

لقـد جـاءت المسرحيـة ثمـرة داء الكورونـا الـذي أصـاب الكاتـب بشـدة، فأنتـج هـذا العمـل في إطـار اللامعقـول الـذي أتـاح لـه التنقُّـل بـين الأزمـان والأماكـن والشـخوص، ليوجّـه سـهام نقـده لأوضاعنـا السياسـية والاقتصاديـة والاجتماعيـة .

المسرحيـة الثانيـة "قطـام وعبـد الرحمـن" التـي يبـدو لي أنـه متأثـر بمسرحيـة الكاتـب السـوري سـعد اللـه ونـوس، سـهرة مـع أبي خليـل القبـاني، إذ يقيمهـا عـلى فكـرة المـسرح داخـل المـسرح، ويوظـف فيهـا معلوماتـه التاريخيـة عـن عبـد الرحمـن بـن ملجـم (قاتـل عـلي بـن أبي طالـب) وعـن عشـيقته قطـام

التـي دفعتـه لارتـكاب الجريمـة، بأسـلوب حـواري وبنـاء درامـي بـارع .. وهـذه المعلومـات لا يعرفهـا معظمنـا، مـا دفعنـي لسـؤال الكاتـب عـن مصـادره التاريخيـة، فقـال لي وهـو يضحـك: هـذه المعلومـات واردة في كتـب الـتراث للطـبري والبـلاذري وغيرهـما التـي كانـت موجـودة في مكتبـة سـجن سـواقة، ربمـا ظنـاً ممـن وضعوهـا هنـاك أنهـا قـادرة عـلى إعـادة تأهيـل هـؤلاء المارقـين والشـيوعيين والمجرمـين، دون أن يـدروا أن في صفحاتهـا مـن الأخبـار والمعلومـات مـا يدعـو إلى الشـك أكـثر مـما يدعـو إلى اليقـين، ومـن هنـا جاءت مسرحيـة قطـام وعبـد الرحمـن، مثـلاً، مـع شيء مـن الفـن .

أمـا مسرحيـة "وزيرنـا الجديـد إبراهيمـي ليـبرالي"، فهـي مسـتوحاة مـما أثـير حـول فوائـد اتفاقيـة وادي عربـة بـين الأردن والمحتـل الإسرائيـلي، وقـد قدمهـا الكاتـب بأسـلوب المفارقـة والنقـد الـلاذع، وذلـك في سـياق رفـض التطبيـع الـذي لم يقـدِّم لـلأردن شـيئا يُذكـر.

وأمـا مسرحيـة "حكايـة مـوت عقلـة السـهْيان"، فهـي مـن نـوع الكـولاج أو النـص الثنـائي بـين مسـاحتين، أو مسرحيتـين، مسـاحة نـص الكاتـب الكولومبـي غابرييـل غارسـيا ماركيـز "قصـة مـوت معلـن"، ومسـاحة نـص أحمـد جـرادات "حكايـة مـوت عقلـة السـهيان" التـي يقدمهـا عـلى أنهـا لكاتـب أردني مجهـول، أو لكاتـب طلـب عـدم ذكـر اسـمه لـرداءة نصـه، أو درءً لغضـب "أبـو العيـون" !! وعقلـة السـهيان يمكـن أن يكـون أي مواطـن أردني، أو يمثـل شـخصاً عاديـاً، أو جنديـاً مجهـولاً، أو بلـداً، أو وطنـاً، أو شـعباً ... وهـو مـن خـلال هـذا

التداخل يريد أن يقارن بين موت سنتياغو البريء، وقتل المواطن الأردني أو ضياع البلاد والعباد على مذبح السلطة السيئة. والكاتب يقيم مسرحية موت عقلة السهيان على المفارقة، إذ مات عقلة بسبب الإهمال وسوء التدبير، كما قُتل سنتياغو نصار الذي اتُّهم بفض بكارة أنجيلا فيكاريو، وهو بريء.. وقد ربط أحمد بين النصيْن والمساحتين ببراعة وذكاء، مُعلياً من شأن البناء الدرامي، على الرغم من تقديم العمل بأسلوب المسرح المفتوح .. وقد جاءت المعالجة ذكية ورامزة، بما يدفعنا إلى تشجيع جهة فنية لتقديم العمل على خشبة المسرح .

وتتألف مسرحية "المطربة والرقيب" من سبعة مشاهد، استمدَّ الكاتب أحداثها من واقعة تخصيص طائرة هليوكبتر لمطربة خليجية كي تزور البترا، ودفاع الرسميين عن هذا العمل بأنه يعود بمردود جيد على السياحة، من خلال تأثير تلك المطربة الإعلامي، في حين يموت الرقيب عواد الذي كان يبحث عن طريدة يصطادها لإطعام عياله، فتلدغه أفعى ويعجز أخوه عن نقله إلى مستشفى بسبب وعورة الطريق وعدم تجاوب الدولة لنقله بطائرة عسكرية، أُسوةً بما فعلت مع المطربة الخليجية .. ومن خلال هذين الموقفين المتناقضين يسدد الكاتب سهام نقده لسلوك الدولة تجاه أبنائها، وتجاه فنانين تافهين يتعالون على الشعب الأردني... وقد جاء ذلك في المشهدين الأول والثاني. أما المشهد الثالث فيكرسه لدور أم كلثوم في حشد الجماهير وجمع المال من حفلاتها للمجهود الحربي بعد هزيمة حزيران/يونيو 1967. وخلال ذلك يستغل الكاتب بعض الأحداث

كالمظاهـرات التـي خرجـت تطالـب عبـد النـاصر بالبقـاء في السـلطة والقتـال، ووفـاة عبـد النـاصر سـنة 1970، وغنـاء أم كلثـوم لقصيـدة نـزار قبـاني (رسـالة إلى الزعيـم) .

وفي المشـهد الرابـع يتنـاول نقـل الرائـد مـراد السـويطي الـذي استشـهد مـع عـدد مـن رفاقـه العسـكريين في المذبحـة التـي ارتكبهـا الدواعـش في مدينـة السـلط، إذ نُقـل جثمانـه في عـزّ الحـر بعربـة عاديـة لمسـافة طويلـة لتسـليمه لأهلـه، في حـين نُقلـت المطربـة بطائـرة عسـكرية إلى البـترا للسـياحة، منوّهـا خـلال ذلـك بـدور الدكتـور يعقـوب زيادیـن والمعتقلـين اليسـاريين في سـجن الجفـر الصحـراوي بمعالجـة المـرضى وزراعـة أرض السـجن اليبـاب. كـما يتنـاول في المشـهد الخامـس زيـارة لينـين وزوجتـه للنـدن، عارضـاً وجهـين متناقضـين للعاصمـة البريطانيـة، حـي ويسـت مينيسـتر الفخـم، وإلى يسـاره عشـوائيات الفقـراء .. وفي المشـهد السـادس يعـرض لموقـف في قصـة مدينتـين (لشـارلز ديكنـز)، وهـو حادثـة دهـس الماركيز(سـان إيفرمونـد) لابـن الفـلاح الفقـير (جاسـبار) وإلقائـه للوالـد قطعـة نقـود كثمـن لابنـه، فـما كان مـن الأب إلا أن اختبـأ أسـفل عربـة الماركيـز، ودخـل قـصره، وغـرز خنجـره في صـدره وهـو نائـم تـاركاً فوقـه ورقـة مكتوبـاً عليهـا "انقلـوه إلى قـبره بسرعـة". والكاتـب يشـير إلى أن المدينتـين في روايـة ديكنـز هـما لنـدن وباريـس عـام 1775، وفي المدينتـين كان المهيمنـون عـلى مقدراتهـما يـرون الواقـع في حالـة سـكون، ولا يمكـن للشـعب أن يفعـل شـيئا، ولكـن ذلـك لم يطُـلْ، إذ سرعـان مـا اندلعـت الثـورات في المدينتـين، وكأني بالكاتـب يشـير إلى الواقـع الأردني

المشـحون بالغضـب، ويلمـح إلى إمكانيـة أن يقـوم ابـن الرقيـب عـواد بمـا قـام بـه الفـلاح جاسـبار، ويتسـلل إلى غرفـة الماركيـز الأردني لطعنـه، أو أن يخـرج النـاس شـاهرين سـيوفهم في ثـورة للجيـاع والمهمشـين والغاضبـين، لهـدم المعبـد الليـبرالي عـلى رؤوس الجميـع .

في المشـهد السـابع يعـرض لاعتصـام الـدوار الرابـع ومشـاركة الجنـدي المتقاعـد سـلمان قريـات الـذي حـضر للمشـاركة في الاعتصـام متزنِّـرا بشـبريته التـي حـاول أحـد أفـراد الـدرك نزعهـا منـه، مـا أدى إلى إصابـة الجنـدي بخـدش، ليتُّهـم سـلمان بأنـه حـاول طعـن الجنـدي، ويُعتقـل بنـاء عـلى ذلـك... أمـا مشـهد الختـام، فقـد كرَّسـه لليلـة انفضـاض الاعتصـام، وتقديـم المخـرج "أوبريـت الليلـة الكبـيرة" الشـهير .

في ضـوء مـا تقـدَّم يمكـن القـول إننـا أمـام كاتـب مسرحـي مسـكون بهمـوم النـاس، امتلـك الوسـائل والأدوات الفنيـة للتعبـير عنهـا ببراعـة وذكاء، مـا يجعلنـا نصنِّـف أحمـد جـرادات كاتبـاً مسرحيـاً فريـد الطـراز، أدعـو الجهـات الفنيـة لتجسـيد بعـض مسرحياتـه عـلى خشـبة المـسرح ، لمـا تنطـوي عليـه مـن وعـي فكـري سـياسي ومسـتوى فنـي رفيـع .

أمـا نصوصـه القصصيـة فلـم تبتعـد كثـيرا عـن فكـر الكاتـب وأيديولوجيتـه السياسـية وانتمائـه الطبقـي، لـذا اختـار حادثـة مـن التاريـخ الأردني الحديـث، وهـي المعركـة الفاصلـة التـي خاضهـا الفلاحـون في شـمال الأردن ضـد عشـائر

البـدو الذيـن كانـوا يسـطون عـلى محاصيلهـم ويخربـون مزروعاتهـم. وقـد قدَّمهـا بأسـلوب قائـم عـلى المفارقـة مسـتخدماً الكثـير مـن المفـردات الفلاحيـة التـي كانـت تُسـتخدم آنـذاك، وبأسـلوب حافـل بالإشـارات والمعـاني والرمـوز. وكل ذلـك نجـده في القصـص الأخـرى: مواسـم أبـو مـوسى المـرضي، والباكـور، والعثـور عـلى رسـالة مفقـودة مـن مذكـرات مناضـل مغمـور، وكلهـا حافلـة بـدلالات نقديـة حتـى لزمـلاء يسـاريين، ومكتوبـة بأسـلوب حـداثي يشـدُّ القـارئ ويجـبره عـلى التفكـير والتأمـل ومراجعـة قناعاتـه .

في الختـام وبعـد هـذه الجولـة في عـالم أحمـد جـرادات الأدبي، أسـتطيع القـول إن مـا لفـت نظـري في هـذه الأعـمال أنهـا حافلـة بالمعلومـات التاريخيـة والسياسـية والدينيـة والأدبيـة، شـعراً ونـثراً، مـن الـشرق والغـرب، التـي يوظفها الكاتـب ببراعـة وذكاء، مُسـقطها عـلى الواقـع الأردني السـياسي، ومـا يعانيـه النـاس مـن صنـوف القمـع والقهـر والإذلال، إلى جانـب معاناتـه هـو طـوال هـذه السـنين، كل ذلـك بأسـلوب المفارقـة العميقـة الدالـة. وهـذا مـا يدعونـا لقـراءة هـذه الأعـمال بوعـي، واكتشـاف مـا تنطـوي عليـه شـخصية الكاتـب مـن قـدرات أدبيـة وفنيـة في نصـوص تسـتحق القـراءة والعـرض عـلى خشـبة المـسرح.

الأُستاذ الدكتور سمير قطامي- عمان 5 /11 /2022

نصوص مسرحية

ورشة عمل كورونية:
كوميديا رمادية من فصل واحد وسبعة مشاهد

(تُفتح الستارة ويظهر المخرج)

المخرج: في هذا المسرح أعزائي/عزيزاتي لا يوجد خشبة وصالة منفصلتان، فالخشبة هي الصالة والصالة هي الخشبة، ولا يوجد ممثلون وجمهور منفصلون، فالممثلون هم الجمهور والجمهور هم الممثلون، يعني مثل ما تقول مسرح طليعي يضاهي مسرح بريخت. المسرحية يمكن أن تُؤدَّى على خشبة أو تُقرأ "هارد كوبي أو "سوفت كوبي". المكان: أي مكان في العالم. الزمان: أي زمان، الماضي أو الحاضر أو المستقبل. الأمكنة والأزمنة متداخلة. الشخوص: كورونيون مختلَطون، رجال ونساء، أحياء وأموات، يمكن أن يأتوا من أي عصر أو حقَبة بلا دستور ولا حاضور).

****

المشهد الأول: تعريف بالورشة

(الممثلون- الجمهور يجلسون على شكل دائرة ضخمة على كامل مساحة الصالة – الخشبة من الداخل، حيث يديرون ظهورهم، بعضهم إلى بعضهم الآخر، ولا يستطيعون رؤية بعضهم بعضاً، لكن يمكنهم سماع بعضهم بعضاً. لا يوجد سوى باب خروج ودخول إلكتروني واحد يُفتح عن بُعد بنقرة من "أدمن" غير مرئي، وربما مبرمج تلقائياً. يُسمع صوت صفارة إنذار. يظهر في وسط الدائرة شخص كوروني يرتدي أوفرهول

وغطاء للرأس والرجلين وقفازات وكمامة ونظارة سوداء، لا يمكن التعرف على شخصيته أو هويته).

الشخص الكوروني: (يقدم عرضاً "برازنتيشن" للمشاركين في الورشة) أنا الميسِّر الكوروني أو الميسِّر كورون. ولمن لا يعرف معنى الكلمة باللغة العربية من جماعة الـ "أن جي أوز" NGOs الأفاضل، أنا "فاسيليتيتر" facilitator. لا يهمُّ اسمي ولا أصلي وفصلي ومنبتي ولا من أين أتيتُ، فشتَّى المنابت والأصول مسألة تقررها البنوك على حد قول الشاعر حبيب الزيودي، بل يقررها البنك الدولي وصندوق النقد الدولي والطغمة الأوليجارشية المالية المعولمة على وجه الخصوص، التي ارسلتني اليكم ممثلاً لها، وما أنا إلا رسول لم يأتِ مثله رُسل.

أنا الميسِّر، أنا كورون (يشير بيده) أنتَ كورون، أنتِ كورونة، أنتم، أنتنَّ كورونات، كلُّكم كورون وكلُّكم مسؤول عن كوروناته، ويا كوروناتي ماع ماع. وقد شرعَ المنظِّرون الكورونيون المتحمسون بتأليف قاموس كوروني حديث يتضمَّن اشتقاقات واستخدامات وتجليات عديدة لجذر مصطلح الكورون، تشمل الأشياء والأشخاص والقضايا والأفكار والمكان والزمان والمادة عموماً. والقاموس مفتوح، وليس أوراقاً بين دفَّتين، ومؤلفوه يطمحون إلى أن يصبح مُعجماً، ثم موسوعة تفوق الموسوعات العتيدة القديمة مثل "بريتانيكا" و"أمَريكانا"- التي باتت في العصر الديجيتالي لا تصلح إلا لتزيين رفوف المكتبات- ذلك لأن من المفترض أن تَسعَ رحمتُها

كل شيء، مـن الكـون اللامتناهـي إلى "الصيبانـة" (فقسـة القملـة). فهنـاك الاشـتقاق الرئيـسي والأهـم عـلى وجـه الإطـلاق، وهـو "الكوْرَنَـة (بتسـكين الواو وفتـح الـراء). ومفهـوم الكوْرَنـة coronization أشـمل مـن مفهـوم العولمـة globalization (أرجـو العلـم بأنـه إذا كنـتُ أولّ مـن صـكَّ هـذا المصطلـح coronization، فإننـي أضعـه تحـت تـصرف جميـع "الكوارنـة"، أي أن حقـوق الطبـع والملكيـة الفكريـة الخاصـة بـه مشـمولة برخصـة المَشـاع الإبداعـي). والكوارنـة ليسـوا عشـيرة كعشـائر الأرادنـة، وإنمـا هـم تيـار عريض، بـل طوفان جـارف عابـر للعشـائر والقبائـل والجغرافيـا والجنسـيات والأجنـاس والإثنيـات والقوميـات والأديـان والمذاهـب والطبقـات والألـوان والجنـادر (جمـع جنـدر). وهنـاك الكُورونـة (بضـم الـكاف)، عـلى غـرار "الكومونـة"، (كومونـة باريـس) الشـهيرة مثـلاً، التـي أُعلنـت في عـام 1871 وعاشـت 72 يومـاً فقـط قبـل أن يُطـاح بهـا، وقيـل عنهـا إنهـا أول دولـة اشـتراكية في التاريـخ. وهنـاك مـن قـال إن دولـة القرامطـة في البحريـن بزعامـة أبي سـعيد الجنـابي سـبَقتْها. والكورونـة تُطلـق عـلى الدولـة، المدينـة، القريـة، المجتمـع، النقابـة، النـادي، الرابطـة.. إلخ. وتنسـحب عـلى الفلسـفة والتاريـخ والأدب والفـن والموسـيقى والحداثـة ومـا بعـد الحداثـة والمينـي حداثـة والإكسـترا حداثـة. إن الهـدف النهـائي المنشـود هـو كوْرَنـة الكـون، أي أن نجعـل الكـون اللامتناهـي كورونيـاً، وفي مقدمتـه البـشر، حيـث سـيأمر "جبـل الأولمـب الكـوروني الأسـمى"، وهـو اسـم القيـادة الهايـبر عليـا، بـزرع شريحـة "تشـيب" في دمـاغ كل شـخص تحـل محـل دماغـه الأصـلي البـالي وتحتـوي عـلى كافـة بياناتـه ومعارفـه وذاكرتـه وتطلعاتـه وأحلامـه، وتتحكـم بعقلـه وعواطفـه وحركاتـه وسـكَناته وتُـدار عـن بُعـد

بكبسة زر أو سحجة (زقرة باللهجة الرمثاوية) تُمكِّن "الأدمن" من رفض معاملات البيع والشراء والتأجير ومنع التسجيل في المدارس والجامعات والتخرج فيها والحصول على شهاداتها، ورفض معاملات الزواج والطلاق والميراث، والحرمان من الحصول على أية وثائق رسمية كهوية الأحوال المدنية ودفتر العائلة وجواز السفر والبطاقات المصرفية والعملة الرقمية التي ستحوِّل ورق البنكنوت في مَحافظكم وخزناتكم ووسائدكم إلى ورق تواليت، وسيصبح الشخص الإنسان مجرد شيء، أو بالأحرى لا شيء.

والآن كورونـاتي حبيباتي، الفضاء الكوروني الفسيح مفتوح لكم على مصاريعه التي لا حصر لها، واسمحوا لي بأن أذكِّركم، بل أنصحكم بتبنِّي المبدأ الكوروني الذهبي المكفول النتائج "سووت" SWOT الرأسمالي (أي مَواطن القوة، مَواطن الضعف، الفرص، التحديات) الذي يمكِّنكم من تحويل مَواطن الضعف إلى مَواطن قوة والتهديدات إلى فُرص، أي تحويل التبن الذي ملأ سراويل أجدادكم إلى تِبر يملأ جيوب أحفادكم بين أنامل الكورون الفنان الشاطر.

أحبائي الكورونات، ضَعوها حلقة في آذانكم، ولا تنسوا أن جبل الأولمب الكوروني الأسمى في هذا العصر الكوروني هو "السيستم" system الأعلى، "سيستمكم الأعلى" الذي يتحكم بكل شيء، رب الكون الكوروني الجديد، دينكم ومعبودكم وكتابكم المقدس، يُعِزُّ مَن يشاء ويُذلُّ مَن يشاء. يَعلمُ خائنة الأعين وما تُخفي الصدور، ويرصُد ما يدور في تلافيف عقلكم

الباطـن وخبايـا أحلامكـم وكوابيسـكم. فإياكـم أن تمكـروا، فهـو خـير الماكريـن، ومَكـرُه يفـوق مكـر التاريـخ بمـا لا يُقـاس.

صـوت همْـس بـين الجمهـور: مَـن هـو جبـل الأولمـب هـذا الـذي ينتحـل صفـات اللـه جـلَّ وعـلا وأسـماءه الحسـنى؟

الشخص الكوروني: (ينهي عرضه) المايك لكم، تفضلوا!

المشهد الثاني: أمر دفاع رقم كذا

(صـوت جَهـوري إذاعـي يعلـن عـبر محطـات الإذاعـة والتلفزيـون إصـدار أمـر الدفـاع رقـم كـذا، يتْبعـه أمـر الدفـاع رقـم كـذا بمقتـضى أحـكام قانـون الدفـاع رقـم كـذا لسـنة كـذا، الـذي يُحظَـر بموجبـه تنقُّـل الأشـخاص وتجوالهـم في جميـع مناطـق البـلاد ابتـداءً مـن السـاعة السـابعة صباحـاً مـن يـوم كـذا حتـى إشـعار آخـر، وتُغلـق جميـع المحـلات في المناطـق كافـة. ويعاقَـب كل مـن يخالـف أحـكام أمـر الدفـاع هـذا والبلاغـات الصـادرة بمقتضـاه بالحبـس الفـوري لمـدة كـذا...). وأُنبِّهكـم إلى أنـه أمـر فـوق كل أمـر، يضاهـي الأمـر بالمعـروف والنهـي عـن المنكـر، وأقـوى مـن القانـون والـشرع وشرعـة الحقـوق الدوليـة، وسـاري المفعـول بأثـر رجعـي إلى أجـل غـير معلـوم...)

كورون 1: الله يستر.

كورون 2: يارب لطفك!

كورون 3: ما الذي حدثَ يا قوم؟

كـورون مخـضرم 4: انتابنـي شـعور بعـودة أجـواء الخمسـينيات والسـتينيات

مـن القـرن العشريـن، حقبـة الانقلابـات العسـكرية، عندمـا كانـت دبابـة تسـيطر عـلى قيـادة الجيـش، وأخـرى تحتـل مبنـى الإذاعـة والتلفزيـون وتذيـع منـه البيـان رقـم 1 وينتهـي الأمـر، بينـما ينـادي بائـع المشـمش عـلى العربايـة في الشـارع عـلى بضاعتـه: "آخِـر أيامـك يـا مشـمش"، فيعلـم رجـل الشـارع/ امـرأة الشـارع أن الجمعـة المشمشـية للحكـم القائـم قـد انتهـت أو شـارفت عـلى الانتهـاء.

كـورون مُعـارض مخـضرم 5: قولـوا لي بربكـم، ألا تشـبه قوانـين الدفـاع الحاليـة تلـك التـي كُنـا نسـميها في زمننـا الجميـل المُـر "الأحـكام العرفيـة" سـيئة الصيـت التـي سـادت حتـى منقلـب العقـد التاسـع مـن القـرن الفائـت واعتقدنـا أنهـا بـادت، لنكتشـف أننـا قصـار النظـر والقامـة أمـام جهابـذة وعمالقـة جبـل الأولمـب.

كـورون معـارض 6: ربمـا، لكنهـا أحـكام عرفيـة ناعمـة هـذه المـرة، أيَّدهـا الشـعب والقـوى والأحـزاب والشـخصيات المعارضـة واسـتقبلوها بالأحضـان وبالرضـا والاستحسـان باعتبارهـا ضروريـة لمكافحـة الجائحـة وحمايـة أرواح النـاس الغاليـة. وتـبرَّع لهـا جَمَـل رأس المـال- باليـم- بشـعرة مـن ذيلـه، بينما لم يتمخَّـض جبَـل المـال الفاسـد - بالبـاء- حتـى عـن فـأر مختـبر، فوقعـتْ الواقعـة، ومـا أدراك مـا الواقعـة!

كـورون حـراكي معـارض 7: يعتقـد بعـض الكورونـات الحراكيـين أن أوامـر الدفـاع تُسـتخدم كتمريـن ميـداني بالذخـيرة الكورونيـة الحيـة لحكـم الكورونة والتـدرُّب عـلى بسـط السـيطرة الكاملـة عـلى المجتمـع والأفـراد وإعادتهـم إلى بيـت الطاعـة، وفرصـة سـماوية للهندسـة الاجتماعيـة الجهنميـة، وذريعـة قانونيـة لكبـت حريـة الـرأي والتعبـير وحظـر التجمـع السـلمي، بمـا فيـه اعتصـام الـدوار الرابـع الـذي انفـضَّ "بفعـل" الكورونـا- بحـرف العـين- بينـما يقـول آخـرون إنـه انفـضَّ "بفضـل" الكورونـا- بحـرف الضـاد- مـما حفـظ للمعتمصـين "حـماوة" وجوههـم، وللسـلطات "بـرودة" عـدم اضطرارهـا لقمعهـم، والظهـور أمـام العـالم الكـوروني الحـر بمظهـر ديمقراطـي. ويـرى مراقبـون وصحفيـون كورونيـون غربيـون أن أهـم مـا تحقَّـق هـو إعـادة إنتـاج نظـام الكوْرنـة بعـد أن اسـتطالتْ الألسـنة وبلـغَ "التشـقيع" الـزبى، وذهـب بعضهـم إلى القـول إنـه تحـت جُنـح ظـلام الجائحـة يمكـن أن تمـرَّ بقيـة بنـود "صفقـة القـرن"، ولا سـيما ضـم الضفـة الغربيـة وغـور الأردن وإنشـاء الوطـن البديـل بطريقـة ناعمـة، أشـبه بافتتـاح المحـلات التجاريـة الناعـم soft opening ، أي بدون طنَّة ورنَّة، وكفى الله المؤمنين القتال .

كـورون 8: أيـوة، أيـوة! الآن فهمـت المعنـى، يعنـي مثلـما كان يفعـل الفلاحـون في قريتنـا، عفـوا في كورونتنـا، بـشرى، بثـور أحدهـم عندمـا يقومـون بكيِّـه لمعالجتـه أو وسـمه (بالمناسـبة اسـتخدم الفلاحـون كلمـة "وسـم" للماشـية قبـل "هاشـتاغ" هـذه الأيـام بِقـرون)، حيـث كان يمسـك بالثـور المسـتهدَف سـتة رجـال شِـداد غِـلاظ ويبطحونـه أرضـاً ويثبِّتونـة، لكـن بـدون أن يضغطـوا

عـلى رقبتـه حتـى المـوت خنقـاً كـما فعلـت شرطـة مينيابوليـس بجـورج فلويـد بسـبب لـون بشرتـه. إذ إنهـم لم يكونـوا يُضمـرون لـه- أي للثـور- أيَّ أذى لأنـه كان صديقهـم ولـه، مثلهـم، اسـم محـترم ينادونـه بـه (صُبـح، أبلـق، فطحـل)، وكانـوا معـه رفـاق درب وحقـل وبيـدر وأولاد حـارة واحـدة، وُلـدوا وكـبروا معـاً وأورثونـا الأرض التـي فلحوهـا معـاً وتشـقَّقت "أكعابهـم" فيهـا معـاً، والتـي قسَّـمناها نُمـراً وبعناهـا سِـلعاً للـوكالات المشـبوهة وقنَّاصـة الفـرص والجوائـز وتجـار الأزمـات والحـروب، العابـرون منهـم والمسـتقرون، بعِلـم أو بـدون علـم. وعندمـا تحْمـرُّ سـياخ الحديـد المحـمَّاة عـلى الجمـر "المسـتوي" ويهـوي أبـو قلـب قـوي، القابـض عـلى السـيخ المحمَّـر، عـلى فخـذ الثـور، "يطبطـب" الآخـرون عـلى خاصرتـه برفـق ويهمسـون في أذنـه: بـارد.. بـارد.. بـارد. غـير أن انتفـاض الجسـد المسـجَّى المزلـزِل ورائحـة شـواء اللحـم الحـي لم يكـن يـشي بأنـه بـارد أبـداً.

كـورون مُـوالٍ 9: (يـصرخ غاضبـاً ويوجِّـه شـتائم تحـت الزنَّـار للكورونـات المعارضـين) هيـك مـن هيـك لكـم وللذيـن تنقلـون عنهـم أخباركـم الكاذبـة. مـا أنتـم إلا مُرجفـون، موتـورون، طابـور خامـس، أصحـاب أجنـدات خارجيـة. أنـا أُعلـن عـلى رؤوس الأشـهاد أننـي مـوالٍ حتـى العظـم للكورونـة المجيـدة. روحـي ودمـي ومـالي وعيـالي فـداء لهـا. عاشـت الكورونـة العظمـى التـي تُطعمنـا مـن جـوع وتؤمننـا مـن خـوف وتكسـونا مـن عـري.

كورون 10: (مُردِّداً من شعر الحطيئة) إذن،
"دعْ المكارم لا ترحل لبغيتها واقعدْ فإنك أنت الطاعم الكاسي".

****

المشهد الثالث: صَلُّوا في بيوتكم

(يُسمع أذان الفجر عبر مكبرات الصوت في المساجد: الله أكبر.. الله أكبر.. لا إله إلا الله.. صَلُّوا في بيوتكم.. صلُّوا في بيوتكم..)

أبو بكر البغدادي: (ينتفض واقفاً بغضب كمن مسَّه جنون) الله أكبر عليكم، يا هراطقة، يا كفرة.

الميسِّر الكوروني: عرِّف بنفسك من فضلك.

البغدادي: أنا الخليفة االراشد الخامس إبراهيم أبو بكر السامرائي البغدادي القُرشي، أقمتُ دولة الخلافة الإسلامية باسم "الدولة الإسلامية في العراق والشام" وبسطتُ حُكم الإسلام العادل في أرجائها. تطاولَ شبيحة النظام السوري على تنظيم دولتنا الإسلامية وأطالوا ألسنتهم عليه استهزاءً به، فأطلقوا عليه اسم "داعش"، واشتقُّوا منه فعلاً وفاعلاً ومفعولاً به: دعشَ، داعش، مدعوش، وتحدثوا بسخرية عن حرب داعش والغبراء، بينما أنصفه الغرب الكافر وسمَّاه باسمه الحقيقي الملطَّف "آيسيس". غير أن القضاء الشرعي العادل التابع لدولة الخلافة أنزل عقوبة قاسية على مرتكبي جريمة إطالة اللسان، تتناسب وبشاعتها، وهي قطع اللسان الذي يتفوَّه بها. وياما قطعنا ألسنة كثيرة وبالتالي دوابر كثيرين (جمع دابر وليس دُبر). إخوتي في الإيمان، إن هذه الإضافة لنَصِّ الأذان بدعة

صُراح، وكلُّ بدعـة ضلالـة، وكل ضلالـة وصاحبهـا في النـار. لكـن الأخطـر مـن ذلـك أن هـذه البدعـة قـد تتحـول مـع تعاقـب الأجيـال إلى جـزء أصيـل مـن الأذان وتصبـح مذهبـاً قائمـاً بذاتـه ولـه أتبـاع، فتنشـب في الأمـة فتنـة وفي الجماعـة اضطـراب، ربمـا أبشـع مـن الفتنتـيْن الصغـرى والكـبرى في التاريـخ الإسـلامي الراشـدي.

كـورون 11: (مخاطبـاً البغـدادي) يـا أمـير المؤمنـين، ومـاذا عـن منـع صلـوات الجماعـة والجمعـة والتراويـح والتباعـد الجسـدي بـين المصلِّين؟

كـورون 12 : ومـاذا عـن الحديـث الشريـف عـن أبـن عمـر رضي اللـه عنهـما: "أقيمـوا الصفـوف وحـاذوا بـين المناكـب وسـدُّوا الخلـل- وقيـل سـدوا الفُـرج، ولا تَـذَروا فُرجـات الشـيطان. مَـن وصـل صفـاً وصَلـه اللـه ومـن قطـعَ صفـاً قطعـه اللـه"- وقيـل إن اللـه لا ينظـر إلى الصـف الأعـوج؟

كـورون 13: يـا أخـا المسـلم، هنـاك فقـه يُسـمى "فقـه الـضرورة" يجيـب عـن مثـل هـذه الأسـئلة.

كـورون 14: ومـاذا عـن وقـف تأديـة أحـد أركان الإسـلام الخمسـة، وهـو الحـج إلى بيـت اللـه الحـرام لمـن اسـتطاع إليـه سـبيلاً مـن خـارج بـلاد الحرمـين الشريفـين لهـذا العـام واقتصارهـا عـلى عـدد محـدود مـن المقيمـين داخـل البـلاد؟

الحـلاَّج: (ينهـض مشرئبّـاً ويغتنـم هـذه الفرصـة للـكلام بـإصرار وإلحـاح عنيديْـن) أنـا حسـين بـن منصـور الحـلاج، دعـوني أتكلـم الآن، فقـد مُنعـت مـن الـكلام قبـل إثنـي عـشر قرنـاً. أريـد أن يعلـم مـن لم يكـن يعلـم في حينـه

أو لا يعلم اليوم أنني حللتُ لكم هذه المعضلة من زمان، في القرن الثالث الهجري، عندما اجتهدتُ، بجواز "الحج الرمزي" وقلت لكم إنه إذا أراد الإنسان الحج ولم يمكنه ذلك، له أن يفرد في داره مكاناً مطهَّراً.. يجمع فيه ثلاثين يتيماً ويُكرمهم بالطعام ويخدمهم بنفسه ويغسل أيديهم ويكسو كلاً منهم قميصاً ويدفع إليه سبعة دراهم، يكون له ثواب حِجة بأكملها. فالعبرة والقداسة تكمنان في تلبية المصلحة الفضلى للإنسان المحتاج. لقد اجتهدتُ وكان لي في ذلك أجر واحد على الأقل. بيد أن وزير المقتدر بالله حامد بن العباس قاتله الله استغلَّ ذلك الاجتهاد للحكم عليَّ زوراً وبهتاناً، ونعَتَني بالزندقة والكفر وصلَبني وقطَّعني إرباً وأحرق جثتي بناءً على سَنَد غير موجود أصلاً، وهو كتاب "الإخلاص" للحسن البصري، اخترعتُه أنا كي أفضح جهل الوزير حامد أمام العامَّة، فاصطادني ذيَّاك اللئيم الحقود.

كورون 15: قصة غريبة والله!

الحلاج: (لا يلتفت إلى التعليق، ويتابع بزهو) هل ترَوْن؟ ها أنتم اليوم تلجؤون إلى فكرتي بعد كل هذه القرون الطويلة والمحنة الرهيبة التي مررتُ بها. وها هو التاريخ يُنصفني بأثر رجعي. ألا يُعتبر الإجراء المتعلق بإقامة موسم الحج لهذا العام شكلاً من أشكال الحج الرمزي؟ وعندما أنشدْتكم:

"اقتلوني يا ثقاتي إن في قتلي حياتي
ومماتي في حياتي وحياتي في مماتي..."

فتحتم سحَّابات أفواهكم وأرخيتم بيضات غبائكم، وقلتم: ما الذي يهذي به هذا الأبله؟ أقيموا عليه الحد فوراً.

أبو بكر البغدادي: (يستشيط غضباً) صَهْ يا رقيع، ما أنت إلا زنديق، وُلدتَ كافراً ومتَّ كافراً وستُبعث كافراً. وتستحق كل ما فعَله بك الوزير حامد وأكثر.

الجولاني: (يقف منافساً) وأنا أبو محمد الجولاني، القائد العام لهيئة تحرير الشام، جبهة النصرة سابقاً، سليل دوحة تنظيم قاعدة الجهاد في أفغانستان، ووريث الشيخيْن الشهيدين عبدالله عزام وأسامة بن لادن، أبطال الجهاد الأفغاني الذي نصر الله به جنده وهزم الجيش الأحمر بكل جبروته وحده. وها أنذا أحذو حذوهما وأقتدي بهما في التخلي عن الدنيا وما فيها في سبيل رفع راية الإسلام في سوريا وإسقاط نظام الأسد الكافر. ولكن هيهات! أين أنا من الشيخ المعلم عبدالله عزام ومن مآثره الجهادية المباركة، اسمعوا وعوا يا قوم:

كورون إسلامي 16: (يتطوع لقراءة نبذة عن الشيخ عبدالله عزام في الإنسايكلوبيديا الإخوانية) نعم، هو الشيخ المجاهد الدكتور عبدالله عزام، من مواليد قرية سيلة الحارثية في الضفة الغربية بفلسطين المحتلة، قيادي في جماعة الإخوان المسلمين، وأستاذ الشريعة الإسلامية في الجامعة الأردنية. غادر فلسطين وترك الجامعة مهاجراً إلى دار الجهاد في أفغانستان. وهو منظِّر الجهاد الأفغاني وصائغ درة تاجه، وهي وثيقة إعلان الجهاد

باسم المذاهب الأربعة عند جدار الكعبة المشرَّفة. وقد زعم مؤرخ نظام عبدالناصر المعادي للإسلام محمد حسنين هيكل أن واشنطن هي التي "أذَّنت للجهاد في أفغانستان" بناءً على خطة بريجنسكي، مع أن قادة الجهاد لا يأتمرون إلا بأمر الله وحده سبحانه. لكنَّ في حروبهم وغزواتهم أولويات، والأولوية كانت لقتال الشيوعية والإلحاد، فهو مُقدَّم على قتال أهل الكتاب. هكذا انطلق جيش الفاتحين المسلمين الأوائل إلى فتح مكة، عاصمتهم الأولى وقبلتهم الثانية وقُدس أقداسهم، قبل أن يتوجهوا لمقاتلة جيوش هرقل وكسرى والمقوقس في مأثرة الفتوحات التي لم تتوقف إلا عندما ترك الناس دينهم وتشبَّثوا بدنياهم. فالبوصلة في النهاية هي: هل هذه دار إسلام أم دار حرب؟ والأوطان في النهاية ما هي إلا أوثان، والإسلام هو الوطن الحقيقي للمسلم.

عدنان العرعور: أنا الشيخ عدنان العرعور، خطيب الثورة السورية المفوَّه. بخُطَبي الجهادية العصماء على المنابر الواقعية والافتراضية أشعلتُ الثورة العظيمة في وجه قاتل شعبه وضد النصيريين والنصارى والروافض. أقول لكم إن هذه الجائحة التي باعدت بين الناس هي "الصاخَّة" التي ذكرها المولى عزَّ وجلَّ في كتابه الحكيم، وهي من علامات الساعة (يتلو الآية الكريمة) "فإذا جاءت الصاخَّة، يوم يفرُّ المرء من أخيه وأُمه وأبيه وصاحبته وبنيه، ولكل امرئٍ يومئذ شأن يُغنيه."

وليعلم القاصي والداني أن هذا الفيروس الذي أصاب الصين أولاً قد سخَّره رب العزّة عقاباً للشيوعيين الصينيين الملاحدة، أتْباع التنين الأحمر ماو ماو، على اضطهاد المسلمين الإيغور وقتل أطفالهم المسالمين، مثلما فعل سبحانه بأصحاب الفيل يوم غزا أبرهة الحبشي الكعبة ليهدمها، وأصاب إبل عبد المطلب جدُّ نبينا. فماذا قال عبدالمطلب يومها؟ قال قولته الشهيرة "للبيت رب يحميه"، فأرسل جلَّت قدرته للغزاة طيراً أبابيل وجعلهم كعصف مأكول. وهكذا حمى الله كعبة إبراهيم من الهدم وسلَّم إبل عبدالمطلب من الغنْم (أي من أن تؤخذ غنيمة). ولم يفهم أبرهة الحكمة من تشبُّث عبد المطلب بإبل قريش وترك مصير البيت لرب البيت إلا بعد هزيمته النكراء.

أبو مالك التلّي: (مبتهجاً بفكرة التسخير الإلهي للفيروس) لا فُضَّ فوك يا شيخي، أنا أبو مالك التلّي، بطل معارك القصير وجرود عرسال، وقائد المجاهدين الذين تصدُّوا لمقاتلي حزب الشيطان، والمسؤول عن سبي راهبات معلولا الكافرات. نعم، "سبحان الذي سخَّر لنا هذا وما كنا له مقرنين." لقد أثرْتَ للتو فكرة عبقرية مبدعة. لماذا لا يفكر المجاهدون باستخدام سلاح الكورونا الجديد هذا ضد أعدائنا الكفرة؟ فهو سلاح فتاك لا مثيل له حتى الآن، لا يمكن صدُّه أو تجنُّبه أو التغلب عليه أو رؤيته أو الإحساس باقترابه. ولا تستطيع أية أسلحة مضادة أو رادارات دقيقة إسقاطه أو إبطال مفعوله، ولا حتى صواريخ الأعداء الروس إس 300 وإس 400 وإس 500. إنه كالقدَر- أستغفر الله- لا رادَّ له. وربما يستطيع

أصدقاؤنا في الغرب تطويره وتسخيره لاستخداماتنا الخاصة، بما يمكِّننا من إرسال مجاهدينا الأشاوس، مفخَّخين "بكشتبان" صغير من الفيروس، إلى حيث نشاء ومتى نشاء ومَن نشاء، إلى قلب الضاحية الجنوبية في بيروت أو باب توما أو قاسيون في دمشق أو صحن العتبات بكربلاء والنجف في سواد العراق الذي أفاءه الله علينا بأسيافنا، أو حتى إلى مركز الحوزة الصفوية في قُم دون أن يكشفهم أحد، لا الحراس ولا الأشعة ولا البوابات الإلكترونية والرادارت الحساسة، ودون أن يُصابوا بأذى. وبذلك يمكن الاستغناء عن العمليات الاستشهادية والمحافظة على أرواح المجاهدين. أما إذا أصرَّ أحد مجاهدينا على الظفر بالشهادة فحرام أن نحرمه منها، إذ يمكنه في هذه الحالة أن ينقل الفيروس بجسمه ويختال به في طول مناطق العدو وعرضها وكأنه ذاهب في نُزهة إلى روضة من رياض الجنة، حيث ينتظره الرضوان بمفاتيحها لإدخاله على الحور العين مباشرة.

كورون 17: لديَّ أسئلة محيِّراني (يقولها باللهجة المصرية، لكن القائل ليس بالضرورة مصرياً) هل فيروس الكورونا مخلوق أم لا؟ هل هو ذكر أم أنثى أم مختلط "الجندر" بلغة الجنادرة اليوم؟ وهل الكورونة الأنثى خرجتْ من ضلع الكورون الذكر الأعوج؟ وهل لهذا المخلوق المتناهي الصغر ضلع أصلاً كما في قصة آدم وحواء؟ وعندما حدث الطوفان ووضع نوح في سفينته من كل زوجين اثنين بغية إنقاذ الخليقة، هل كان بينها كورون وكورونة. ويومَ تفيهقَ ابنه العاصي بأنه سيأوي إلى جبل يعصمه من الماء، حيث لا عاصم إلا الله، هل قام الزوجان بالاختباء داخل حبة

ملح من أملاح البحر الميت حفظتْهما كل هذه المدة الطويلة إلى أن ظهرا فجأة الآن، ربما كي يشهدا على ضمِّ غور الأردن والبحر الميت إلى أراضي الامبراطورية التلمودية العظمى؟

الميسِّر: ما لا تعرفه يا عزيزي الكورون هو أنه بات لدينا فقه يسمى فقه الكورونا وعِلم يسمى علم الكورونا. وعندما تتعمَّق فيهما، ستجد ضالَّتك من الأجوبة عن جميع الأسئلة "المحيِّراك" يا عيني، اطمئن.

****

المشهد الرابع: تَباعَدوا .. تَقارَبوا

(أصوات عن بُعد تتكرر: تباعدوا .. تقاربوا، تقاربوا .. تباعدوا .. تباغَضوا)

مجموعة من الكورونات المشاركين: (يثيرون جلَبة في المكان) نريد أن نفهم يا إخوان هل نتباعد أم نتقارب. إرسوا على بَر ورسوُّنا رسَّاكم الله.

كورون 18: يا إخواني الكورونات، التباعد الاجتماعي هو الحل؛ فهو لا يقي من فيروس كوفيد- 19 وسلالته فحسب، بل يفيد في التخلُّص من التكاليف المادية الباهظة لمناسبات الأفراح والأتراح: الخطبة والجاهة و"الحنَّا بارتي" والزفاف والمناسف وفنادق الخمس نجوم وشهر العسل في جزر المالديف وحتى "التعليلة" والدبكة الشعبية في الهواء الطلق على فنجان سادة وكاسة شاي وحبة ملبس وشُبَّابة أو مِجوزْ أصبحت مكلفة بالنسبة لمحدودي الدخل. كما يساعد التباعد الاجتماعي على التخلص من أنشطة النفاق وحُمَّى التقرُّب من تحت إلى فوق، فمن

شـدة شـوقهم إلى طـوق يتدحرجـون مـن تحـت إلى فـوق- عـلى حـد سـجع الشـاعر المجـدِّد أبي نـواس الـذي سـخِر مـن الوقـوف عـلى الأطـلال عنـد فحـول الشـعر الجاهـلي ببيتـه الشـهير:

"قُلْ لمن يبكي على رسم دَرَسْ واقفاً ما ضرَّ لو كان جَلَسْ؟"

كـورون 19: ويسـاعد أيضـاً عـلى الإفـلات مـن اسـتعطاف ذوي الألقاب السَـنيَّة مـن أصحـاب الدولـة والمعـالي، مـن أجـل "طلـب" يـد العـروس مـن أهلهـا أو "إعطائهـا" لأهـل العريـس- كأنهـا شيء- وفي الحالتـين لا يشـهد شـاهد مـن أهلهـا، لأن المهـم هـو التكافـؤ في اللقـب، فـإذا طلـب دولـة فـلان أعطـى دولـة عـلان، وإذا طلـب معاليـه أعطـى معاليـه، وهكـذا. وفي خطبـة عصـماء مكـرَّرة يبـدأ دولته/معاليـه، بعـد الحوقلـة والبسـملة، بتـلاوة مـا تيـسَّر مـن آيـات بيِّنـات ثـم حديـث شريـف يتعلـق بموضـوع الـزواج، قبـل أن يعـرِّج على حكايـة منسـوبة إلى أحـد الصحابـة أو الشـخصيات المعروفـة بالـورع والتقـوى في التاريـخ العـربي الإسـلامي. وإذا كان يحفـظ شـيئاً مـن الشـعر العـربي القديـم، فإنـه يزيـد عـلى ذلـك بيتـاً كي يعطـي انطباعـاً للجمهوريْـن المتقابلـيْن بأنـه عـلى قـدر مـن الثقافـة، ويقـال عنـه إنـه "واللـه ياعمـي زلمـة متكلـم".

كـورون 20: (يقاطعـه ويكمـل) ولا ينـسى دولته/معاليـه في نهايـة خطبتـه أن يشـيد بنسَـب كل مـن عائلتـيْ العروسـين الـذي قـد يعـود بـه إلى الجزيـرة العربيـة، ممـن قـدِم أسـلافهم إلى الأردن وفلسـطين مـع مأثـرة الفتح الإسـلامي. ومـا أن يَهُـمُّ بذكـر اسـميهما حتـى يسـتلَّ قصاصـة مـن جيـب بدلته السـموكن الداخـلي ويقرأهـا، ليتبـيَّن أنـه لا يعـرف، ولا يهمُّـه أن يعـرف، مَـن هـما ولا

مِـن ويـن قرعـة أبويهـما. وبعـد انـصراف الجاهـة راشـدين عـلى حـد تعبـير قيـادات الإخـوان الملسـمين الشـهير "انصرفـوا راشـدين" في التوجيـه الـذي تصـدره لأنصارهـا عـبر مكـبرات الصـوت مـن عـلى مـتن البكـب الأخـضر في المسـيرات التـي يتقدمهـا رموزهـم، وإلى جانبهـم بعـض قـادة القـوى والأحـزاب القوميـة واليسـارية في مشـهد وقـور مـن تشـابك الأكـواع والأبـواع وجهـاً لوجه مـع شاشـات الفضائيـات وعـلى الهـواء مبـاشرةً.

كـورون 21: (يُكمـل) وبعـد انـصراف أصحـاب الألقـاب السَـنيَّة مـن مـسرح الجاهــة يتْبعهــم "البــدون"، أقصــد بــدون ألقــاب- أرجــو المعــذرة عــلى اسـتخدام هـذا المصطلـح المـسيء لمـن يُطلـق عليهـم هـذا الوصـف- لأن الكوْرنـة تدعـو إلى المسـاواة التامـة بـين ذوي المناصـب وعديمـي المناصـب، بـين مـن يأكلـون البسـكوت وبـين مـن لا يجـدون القليّـة، عـلى حـد تعبـير الشـاعر عـرار وهـو يُقسـم:

"قسماً بماحص والفحيص وبالطفيلة والثنيّة..

ودم ابن شهوان الزكيّ ومصرع النفس الأبيَّة[1]

وأكلتَ بسكوتاً وهذا الشعب لا يجد القلية..."

كـورون 21: (يسـتطرد) هـذا عندمـا كان البسـكوت يُعتـبر مـن مأكـول الملكـة مـاري أنطوانيـت. أمـا القليَّـة، فـإن الشـعب الأردني اليـوم لا يجدهـا لأنـه لم يعـد يُنتـج القمـح الـذي يقليـه ويطحنـة ويخلطـة بالسـكر ويصنـع منـه

1- ابن شهوان هو صايل الشهوان، أحد قادة ثورة سنة 1923 الذي تصدَّى بسيفه على صهوة جواده لمدرعات الانتداب البريطاني فقتلته برشاشاتها.

"البسيسة" التي يأكلها في ليالي المربعانية الطويلة القارسة البرودة، أو حتى يقرطها وهو ذاهب على ظهر حماره إلى الحقل كما كانت الحال في زمن الشاعر.

كورون 22: (يُكمل الصورة) وفي اليوم التالي، بعد أن يُزفَّ الخبر السعيد في الصحف والمواقع الإلكترونية ووسائل التواصل الاجتماعي التي تعجُّ بالصور والأسماء الكبيرة سابقاً و"البوزات" المحترفة في مواجهة الكاميرا، يغيب الخبر والحفل والناس في طيَّ النسيان بعد تحقيق الهدف الأسمى، وهو تذكير "صانع القرار"، بحسب التعبير الشائع لدى المسؤولين السابقين والحاليين ووسائل الإعلام، بأنهم أصبحوا جاهزين "مِن جَميعُه" لإعادة تدويرهم لدخول التشكيل الوزاري القادم، مع أنهم كانوا قد خرجوا من التشكيل السابق بزفَّة بجلاجل محمَّلين بكل آثام المرحلة.

كورون 23: دعوني أزيدكم من الشعر بيتاً. مع التباعد الاجتماعي والجسدي يمكن الاستغناء عن كل هذه الطقوس المكلفة والمتعبة، والعودة إلى الأصول، إلى ما كانت عليه طقوس الزواج البدائية البسيطة: إيجاب وقبول، عندما كان الشاب يجلس على حجر والفتاة تجلس على حجر مقابِلَه ويعقدان قرانهما، حيث يبادر الشاب فتاته بالقول: "أني على حجر وانتي على حجر، أني أقبلك انثى، تقبليني ذكر؟ "فتردُّ الفتاة": إي بالله، وأني أقبلك بعل." وفي رواية عصرية جداً، تردُّ العروس بالإنجليزية: "Yes, I do"، ثم ينهضان عن حجريْهما. يتقدم العريس خطوة نحو عروسه،

يقف إلى جانبها، يضع يده بيدها، ويسيران الهوينى متوجِّهيْن إلى "محَرَم" الزوجية المستقل خلف "المعند" (الذي يفصل حيِّزهما عن حيِّز الآخرين في بيت الشَعر). وبذلك لن تكون هناك أية مخاطر من أن يُصاب أحد بعدوى فيروس كورونا.

وفي ستينيات القرن الفائت، قيل- ربما على سبيل الطُرفة- إن إجراءات عبدالناصر المتعلقة بكهربة الريف المصري وإدخال جهاز التلفزيون إلى المنازل بفضل السد العالي ساعدت على تنظيم النسل وتخفيف الانفجار السكاني في تلك الفترة لأنها أسهمت في التباعد الجسدي بين الأزواج.

****

المشهد الخامس: مناعة القطيع

ثوماس مالثوس: (يتحدث بعنجهية المنتصر): أنا العالِم السكاني والاقتصادي ثوماس مالثوس، صاحب النظرية التي سُميت باسمي "المالثوسية" والتي أثارت عاصفة من الرفض وهاجَمني بسببها الشيوعيون لأنني قلت في أحد مؤلفاتي "بحث في مبدأ السكان" إن الشخص الذي ليس له من يعيله والذي لا يستطيع أن يجد له عملاً في المجتمع لن يجد لنفسه نصيباً من الغذاء على أرضه، وأنه عضو زائد في وليمة الطبيعة، حيث لا طبق له بين الأطباق، ولذا فإن الطبيعة تأمره بمغادرة الزمن." لكنني لا آبه بالنقد وأُحذِّركم من أن الزيادة السكانية تفوق كفاية

الإنتاج الغذائي وتُشكّل كارثة سكانية وخطراً على الكرة الأرضية. ولذا فإن الحروب والمجاعات والأوبئة والجوائح، على شاكلة الجائحة الحالية كوفيد - 19 تمثِّل الحل الطبيعي لهذه الكارثة، فتقاربوا ودعوها تتفشى وليمتْ مَن يموت وليحيَ من يحيا. ويؤيدني اليوم زعماء كثيرون، من السياسيين والاقتصاديين الذين يرفضون الإغلاق والتباعد الاجتماعي من أجل المصلحة الفضلى للاقتصاد الرأسمالي.

كورون مثقف 24: ألا ينسجم هذا الرأي مع رأي تشارلز داروين الذي يقول إن البقاء للأقوى، ومع اقتراح الكاتب جوناثان سويفت في مقاله "اقتراح متواضع"؟

كورون مثقف 25: (محتجَّاً) لا،لا، المالثوسية مغايرة تماماً لجوهر ومقاصد نظرية العالم داروين، الذي كرَّمته بلاده بدفنه في "ويستمينيستر آبي" وطبعت صورته على الجنيه الاسترليني أيام عزِّه (عز الجنيه) تقديراً لإسهاماته العلمية الهائلة في نظرية النشوء والارتقاء والانتقاء الطبيعي. وهي عكس مقاصد اقتراح الكاتب الأيرلندي الساخر جوناثان سويفت في مقاله الشهير "اقتراح متواضع، الذي نشره في عام 1792 بأسلوب الكوميديا السوداء كي يُحْدِث صدمة ورعب في المجتمع لعلَّها تهزُّ أساسات الطبقة المتوحشة التي تستغل الفقراء الأيرلنديين بأبشع صورة وتحرمهم من الحياة الآدمية.

كورون 26: ما فحوى الاقتراح يا مثقف؟

كـورون مثقـف 27: ملخـص اقتراحـه يقـول إنـه مـن أجـل الحـؤول دون أن يصبـح الأطفـال الأيرلنديـون المُفقَـرون عبئـاً عـلى عائلاتهـم وبلادهـم، ولحـلِّ مشـاكلهم الاقتصاديـة، فإنـه يقـترح عليهـم بيـع أطفالهـم الصغـار لحـماً غضَّـاً وطازجـاً، مشـويَّاً أو مقليـاً أو مطبوخـاً بالصلصـة البيضـاء أو الحمـراء لتقديمهـا وجبـةً شـهية عـلى موائـد السـيدات والسـادة الأثريـاء.

مالثـوس: (يوضـح) أيهـا الكورونيـون والكورونيـات، مالثوسـيتي الكلاسـيكية هـي أصـل الأوليجارشـية الماليـة النيوليبراليـة الحاليـة التـي تنـادي بشـعار "المليـار الذهبـي" في الكـرة الأرضيـة.

كـورون ثـوري 28: يـا سـلام عليـك يـا جوناثـان! صحيـح أن التاريـخ يعيـد نفسـه! أليـس اقتراحـه شـبيهاً باقـتراح الثنـائي أحمـد فـؤاد نجـم- الشـيخ إمـام في قصيدة/أغنيـة "بوتيـكات" التـي ظهـرت بعـد مـرور مـا يربـو عـلى قرنـين مـن الزمـن؟:

"حتقولِّي الفقراء ومشاكلهم.. دي مسائل عايزة التفانين
وأنا رأيي نحلَّها ربَّاني .. ونموِّت كل الجوعانين
وبهذا محدِّش حيجوع.. لو نعلن هذا المشروع
وحنقفِّل هذا الموضوع.. نهائياً ونعيش في نَبات."

كـورون معـارض 29: أنـا الدكتـور محمـد، طبيـب خبـير في قضايـا الأوبئـة والجوائـح، أسـتخدم عقـلي ولا آخـذ مـا يقولـه الآخـرون كمسـلَّمات، بـل أنظـر إليـه بعـين ناقـدة، فليـس في العلـم تابوهـات. لاحظـتُ أن كورونتنـا اجترحـت اسـتراتيجية هجـين "هايـبرد" بـين التباعـد والتقـارب، أو بـين مناعـة القطيـع والإغـلاق التـام، يمكـن تسـميتها "اسـتراتيجية تسريـح القطيـع"، حيـث تعمـد إلى تسريـح القطيـع في النهـار بحثـاً عـن الـكلأ والمـاء والنـار عـلى حسـابه الخـاص، بعـد أن كان النـاس جميعـاً فيـما مـضى شركاء في هـذا الثالـوث، و"تزْرُبهـم" في الليـل، ومـا أدراك مـا الليـل! الليـل يـا ليـلى أبـو سـاتر، بيـت الأسرار ومخـدع الـزواج الآثـم بـين السـلطة والبزنـس، وطاولـة توزيـع الغنائـم والأدوار، وبـرزخ الـصراع بـين جنـة أحـلام الليـل وجحيـم كوابيـس النهـار، وخُلـوة لاسـتراحة المحـارب والتفـرغ لوضـع الخطـط والاسـتراتيجيات بعقـل بـارد وأعصـاب هادئـة بعيـداً عـن حسـد الرعـاع وجشـعهم.

****

المشهد السادس: التعليم عن بُعد: قصة نجاح

(كبـير خـبراء راحـل في مجـال التربيـة والتعليـم يُطـلُّ عـلى تجربـة التعليـم عـن بُعـد)

الدكتـور فاخـر عاقـل: أنـا الأسـتاذ الدكتـور فاخـر عاقـل، خبـير في مجـال التربية والتعليـم في منظمـة اليونيسـكو، ومديـر مركـز التربيـة الأساسـية- حـوارة، الـذي أسَّسـته في عـام 1955، وهـو الثـاني مـن نوعـه في البلـدان العربيـة

بعـد مركـز سرس الليـان بصعيـد مـصر. وقـد قـدَّم المركـز برنامجـاً متكامـلاً مدهشـاً مـن الخدمـات، دخـلَ في عمـق حيـاة النـاس في عنقـود القـرى السـت (حـوارة، الصريـح، الحصـن، إيـدون، بـشرى وسـال) الواقعـة في منطقـة حـوران بشـمال الأردن، وأحـدثَ فيهـا فرقـاً ملموسـاً. ويمكننـي القـول إن المركـز حقَّـقَ نقلـة نوعيـة في حيـاة السـكان وخلـقَ حالـة جميلـة وبعـث الفـرح في نفوسـهم. وشـمل البرنامـج أنشـطة محـو الأميـة للكبـار في صفـوف ليليـة؛ والمكتبـة المتنقلـة عـلى ظهـر شـاحنة تجـوب القـرى السـت لإعـارة الكتـب؛ والإرشـاد الصحـي والزراعـي والأنشـطة الرياضيـة والثقافيـة؛ ثـم أُنشـئت فيـه دار المعلمـين الريفيـة- حـوارة لإعـداد المعلمـين الذيـن كانـت البـلاد بحاجـة ماسـة إليهـم. كل ذلـك قبـل أن يتـسرَّب تمويـل مؤسسـة فـورد الأمريكيـة، ليتحـول المركـز في نهايـة المطـاف إلى موضـة "كوميونيتـي كوليـج". لقـد تابعتُ باهتـمام كبـير موضـوع التعليـم عـن بُعـد عندكـم ورأيـت العجـب العُجـاب. فقـد بلغنـي قصـة عائلـة مـن إحـدى القـرى السـت التـي كنـتُ أُشرف عليهـا وأزورهـا باسـتمرار، وقـد أصبـح معيلهـا شـيخاً مُقعـداً كُـسر ظهـره نتيجـة لطبيعـة عملـه كحجَّـار، يعيـش مـع ابنتـه وحفيداتـه الخمـس في دار مكوَّنـة مـن غرفـة واحـدة سـقفها مـن القُصّيـب والجسـور الحديديـة التـي جمَعهـا السـكان مـن قضبـان سـكة حديـد الحجـاز التـي كان قـد فجَّرهـا لورنـس العـرب في الحـرب العالميـة الأولى، وجدرانهـا و"سنسـلة" الحـوش المحيـط بهـا مبنيَّـة مـن الحجـارة السـوداء البركانيـة الموجـودة في المنطقـة منـذ الأزل والتـي كان قـد كسَّرهـا "بالمهـدَّة" في عـزِّ شـبابه. بيـد أن البنـات، الـلائي يدرسـن في مدرسـة القريـة الحكوميـة مصمِّـمات عـلى إكـمال دراسـتهن الثانويـة

والجامعية لإيمانهن بأن التعليم يمكن أن يمدَّهن بحبل النجاة للخروج من تحت الأرض إلى سطحها. لكن ثمة مشكلة تعترض سبيلهن، وهي أنه لا يتوفر لديهن كمبيوتر "بي سي" ولا "لاب توب" ولا "آي باد" ولا حتى موبايل، وليس لديهن "أكسيس" إلى الإنترنت والمنصات التعليمية... فكيف يمكنهن الاستفادة من عملية التعليم عن بُعد؟
وقد أرسل لي أحد المعلمين رسماً كاريكاتورياً يلخِّص العملية التعليمية عن بُعد، إذ يصوِّر المعلم وهو يشرح الدرس على اللوح والأم تشاهده وتستمع إليه وتسجل المعلومات وتجيب عن أسئلة الاختبار والتقييم الذاتي بينما الأولاد مشغولون باللعب في زاوية أخرى من الغرفة.

كورون نبيه 30: أنا عندي حل لمشكلة هؤلاء الطالبات يا دكتور فاخر: أقترح عليهن اللجوء إلى "التليباثي" أو التواصل عن بُعد، فهو يشبه التعليم عن بعد، أليس كذلك؟ دعوني أضرب مثلاً من التاريخ العربي الإسلامي في قصة الخليفة الثاني عمر بن الخطاب مع أحد قادة جيوشه واسمه سارية. ففي إحدى الغزوات أحسَّ عمر أن الجيش بقيادة سارية مُني بالهزيمة أمام العدو، فما كان منه إلا أن خاطَبه من مقره في مركز الخلافة بالمدينة المنورة: "يا سارية، الجبل.. الجبل" فسمعه سارية واتَّجه على الفور نحو الجبل، وبذلك استطاع تحويل مجرى المعركة رأساً على عقب من هزيمة إلى نصر.

الدكتـور فاخـر عاقـل: (متجاهـلاً الاقـتراح) اعـذروني يـا أعـزائي المشـاركين، لا يمكننـي الاسـتمرار في ورشـة العمـل هـذه. انـا منسـحب، أنـا عائـد إلى مثـواي مـا بعـد الأخـير.

(الدكتور عاقل ينسحب).

****

المشهد السابع: المانيفستو الكوروني العالمي

الميِّـسر: (يظهـر في وسـط الدائـرة مُعلنـاً اختتـام ورشـة العمـل الكورونيـة) أحبـائي الكورونيـات والكورونيـون، في ختـام ورشـة العمـل الكورونيـة اللاتاريخيـة هـذه أُعلـن عـن صـدور المانيفسـتو الكـوروني العالمـي التـالي، أيـن منـه المانيفسـتو الشـيوعي العالمـي الـذي كتبـه كارل ماركـس وفردريـك إنجلـز في عـام 1848:

الديباجة:

"شـبحٌ يخيِّـم عـلى القـارات الخمـس، تداعـتْ للتصـدي لـه سـائر الـدول والشـعوب، وباتـت القـوى العالميـة كلهـا تعـترف بـه كقـوة قاهـرة يجـب أن يُحسـب لهـا ألـف حسـاب. ولـذا فـإنّ الكورونيـين والكورونيـات آن لهـم أن يعرِضـوا أمـام العـالم كلـه طـرق تفكيرهـم وأهدافهـم واتجاهاتهـم، وأن يواجهـوا خرافـة شـبح الكورونيـة ببيـان مـن جبـل الأولمـب الكـوروني الأسـمى نفسـه:

الإنذار الأخير:

أيها القطيع البشري..

تباعـدوا.. تقاربـوا، تحابُّـوا.. تباغضـوا، تصاعـدو.. تنازلـوا، تفاءلـوا.. تشـاءموا.. تشـاءلوا (بـالإذن مـن الـروائي إميـل حبيبـي) تيامنـوا.. تيـاسروا.. تواسـطوا، تنافـروا.. تجاذبـوا، تضاحكـوا.. تباكـوا، تناصحـوا.. تكاذبـوا، تكالبـوا.. تراخـوا، تزاوجـوا.. تطالقـوا، تظاهـروا.. تباطنـوا، ترابحـو.. تخـاسروا، تقاتلـوا.. تهادنـوا،.. قوموا..اقعـدوا، ناموا..اسـتيقظوا، إلى آخـر الثنائيـات في اللغـة العربيـة، ومـا أكثرهـا. هـذا كلـه لا يهـمُّ جبـل الأولمـب الأسـمى بقـشرة بصلـة. المهـم الوحيـد هـو أن تظـل عجلـة الاقتصـاد الكـوروني دائـرة بـلا توقُّـف وأن يظـل الأمـن الكـوروني مسـتتِّباً بـلا منغِّـص إلى مـا لا نهايـة، فالكوْرنـة لا نهائيـة وحُكمهـا أزلي وجبـل الأولمـب الكـوروني خالـد. والتاريـخ هـو الميتـا تاريـخ.

فاصعـدوا عـلى ظهـر المركـب الكـوروني الأخـير الذاهـب إلى جبـل الأولمـب الكـوروني الأسـمى المقـدس مـع الفرقـة الناجيـة قبـل أن يبتلعكـم الطوفـان.

الشعار الخالد:

يا كورونات الكون اتَّحدوا؟

(ظـلام في المـسرح. تُسـمع أصـوات بعيـدة ودبيـب أقـدام وهمهـمات خـارج المـسرح، لم يتَّضـح بعـد مـا إذا كانـت نجـدات بشريـة أم تعزيـزات كورونيـة).

* كتبتُ هذه المسرحية تحت تأثير كابوس إصابتي بفيروس كوفيد19- في آذار/مارس 2020 التي دامت فترة طويلة وكادت تودي بحياتي لولا العناية الحثيثة المشبعة بالحب الخالص من قبل أُسرتي النووية، والمساعدة المُحبة من قبل بعض أصدقائي ورفاقي الأطباء، عن قرب وعن بُعد، فخرجت كلماتها من فم الكابوس، الذي ربما خيَّمت أجواؤه الأليمة على مزاج الكاتب والمسرحية، ما اقتضى التماس المعذرة.

قطام وعبدالرحمَن*

تستند المسرحية إلى أحداث تاريخية، ولا تتطابق معها.

"فلا مهر أغلى من عليٍّ وإن غلا ولا فتك إلا دون فتك ابن ملجم"

(ابن أبي مياس المرادي، ونسَبَه الحاكم في المستدرك إلى الفرزدق.)

* عبد الرحمن بن ملجم، الذي اغتال الإمام علي بن أبي طالب، وقطام حبيبته وشريكته.

المشهد الأول

[المسرح مساحة ذات مستوى واحد. خشبة المسرح ليست منفصلة عن صالته، هرَج ومرَج بين الجمهور. تصفير وشتائم. يقف المخرج محاولاً تهدئتهم والاعتذار عن تأخُّر الممثلين، فيتلقى سيلاً من الشتائم من كعب الدست.]

أصوات: نصَّابون. زعران. أولاد الـ...

(تخطر له فكرة، فيعدل عن الاعتذار، هرباً من الحرج والبهدلة، ويعلن للجمهور..)

المخرج: يا جماعة، المسرحية بدأت بالفعل. دعوني ألفت انتباهكم، سيداتي سادتي، إلى أنه في هذه المسرحية لا يوجد مسرح وصالة، ولا ممثلون ونظارة. المسرح هو الصالة، والصالة هي المسرح. الممثلون هم المتفرجون، والمتفرجون هم الممثلون. تختلط الشخصيات والأحداث التاريخية بالعصرية، والواقعية بالفنية، ويختلط الحابل بالنابل، ولن تعرفوا رؤوسكم من أرجلكم. فإن تحقق ذلك، تكون المسرحية قد نجحت. وإن خرجتم بشيء ما، فهو خير وزين.

مثقف (يزعق منفعلا): هذه مسخرة. لقد جئت لأشاهد مسرحاً، فوجدت نفسي في زار.

مثقف آخر: لعلَّ هذا مسرح ما بعد الحداثة.

المخرج: لا يا أستاذ، معلوماتك قديمة. هذا مسرح ما بعد بعد الحداثة، بعدها بكثير. هذا هو الميتا مسرح، فهل تريدني أن أقدم ما وراء التاريخ

في دراما كلاسيكية من ثلاثة فصول وستارة وما إلى ذلك من كلام أكل عليه الدهر وشرب؟ هذا استهتار بالعقول وبنفسي في المقام الأول. اصبروا وصابروا، أرجوكم. أعطوني فرصة من شان النبي.

أصوات:

- صلُّوا على النبي.
- اللهم صلِّ عليه.
- أعطوه فرصة يا جماعة الخير، أعطوه فرصة.
- غلطنا وجينا وصار اللّي صار.
- والحل؟
- أين سنقضي الليلة؟
- هل تريدون أن نعود إلى بيوتنا ونتفرج على فعاليات الزعماء الأشاوس في فضائيات الزيف؟

شخص: مَن هذا القزم الذي تطاول على هامات الزعماء الملهَمين الملهِمين؟ (بفتح الهاء الأولى وكسر الثانية، أو بالعكس)

(وجوم. المخرج يستغل الجو الذي خيَّم على المسرح ليمهِّد إلى المشهد الثاني)

المخرج: سيداتي سادتي، اسمعوني، سنقدم لكم قصة حب توقف شعر رؤوسكم، وتجعلكم تقفون على إصبع واحدة طوال العرض. قصة حب تفوق أشهر القصص في التاريخ (يبدأ بتسمية بعضها): قيس وليلى، قيس ولبنى، جميل وبثينة، روميو وجولييت، أنطونيو وكليوباترة، ابن الورد وعفراء...

أحدهم: عفَّرتْك الملائكة بسخام جهنم يا فاسق.

المخـرج (لا يكـترث ويتابـع): جميعهـا لا تسـاوي بعوضـة إذا مـا قورنـت بقصتنـا لهـذه الليلـة. احبسـوا أنفاسـكم (وعـلى طريقـة تقديـم النجـوم): إنهـا: "قطـام وعبـد الرحـمااان".

(احتجاجات لا أوَّل لها)

آخـر: جميـع القصـص التـي ذكـرت يـا مخـرج "الروائـح"- بالحـاء- تبـدأ بالرجـل، إلا قصتـك هـذه: قطـام وعبدالرحمـن. لمـاذا لا تكـون كغيرهـا، ذكريـة المبتـدأ: عبـد الرحمـن وقطـام؟

ثالث (ضاحكا): لعلَّه رجل "فيمينيست"، من أنصار المرأة.

رابع: نسونجي يعني؟

امرأة (محتجةً): وهل النسونجي نصير للمرأة يا زير زمانك؟

أخرى (غاضبة): ومالها المرأة يا متخلف؟

الرابع: أنا متخلف يا هبلى؟

(زعيـق، شـجار، فـوضى، المخـرج ينتفـض كمـن أصابـه مَـسٌّ، أو هبـطَ عليـه شـيطان المـسرح)

المخـرج: سـتوب، ممتـاز، هائـل، أحسـنتم، أحسـنتن. قصـة الحـب هـذه سـتكون بعنـوان: "المتخلـف والهبـلى".. تـررلم!

المشهد الثاني

[الزمان: 17 رمضان سنة 40 للهجرة. ويمكن أن تكون سنة 400 أو 1400. المكان: حاضرة الكوفة، ويمكن أن تكون أي عاصمة عربية. قطام: المعشوقة، امرأة صارخة الجمال، بالغة الفتنة، طاغية الشخصية. يمكن أن يرسمها كل عاشق على الصورة التي يريد، وهي من قبيلة تيم الرباب، ويمكن أن تكون من أي قبيلة أو عائلة عربية من المحيط الهادر إلى الخليج الثائر. عبد الرحمن: العاشق، رجل بلا ملامح، وبلا شخصية مميزة، من حِمْيَر، وعداده من حيث العطاء في كندة. يمكن أن يكون من أي قبيلة أو عشيرة أو فخذ أو بطن، من العرب العاربة أو المستعربة].

عبد الرحمن: ينفض الغبار عن ملابسه) دعوني أرتاح من وعثاء السفر. فقد عثرتْ ناقتي في الطريق من البيت العتيق، فأكملتُ رحلتي سيراً على الأقدام، بلا زاد ولا ماء، الله وكيلكم.

قطام (تنتبه وترمقه بنظرة كاشفة): أيها النصاب الظريف، أنت؟

عبد الرحمن: قطام؟ أحُلم هذا أم عِلم؟ ربنا لا توقظني منه.

قطام: ليس حلماً يا حالم، وأريدك مستيقظا على الآخر.

عبد الرحمن: لقد قطعتُ الفيافي والقفار، كي أصل إلى واحتك الظليلة.

قطام (ساخرة): يا قاطع الفيافي والقفار، أيها السندباد البري.

عبد الرحمن: قطعت السبع بحور كي أصل إلى شاطئك الأمان.

قطام (ساخرة أيضا): يا قاطع السبع بحور، أيها السندباد البحري.

أحدهم: (يقهقه) لم يبقَ إلا أن تقول إنك عبرت الأجواء من عاصمة الخلافة الأولى إلى عاصمتها الثانية الكوفة على بساط الريح، أو ربما

عرجْـتَ إلى هنـا معراجـاً - بـلا تشـبيه - أيهـا النصَّـاب المدَّعـي.
عبـد الرحمـن: (متجاهـلاً السـخرية والشـتيمة كي لا يُكشـف كذبـه) بـل مسـتعد لأن أقطـع قلبـي مـن جـذوره، وأضعـه في إحـدى راحتيـك.
قطـام: سـلامة قلبـك. أريـدك أن تقطـع لي ذلـك القلـب الحجـر، فتنقطـع معـه تلـك الشـجرة العلقـم مـن أرومتهـا.
عبـد الرحمـن (لا يفهـم الإشـارة ويتابـع التغـزل بهـا): دعينـي أتأمـل هـذا الجـمال السـماوي الأخّـاذ، اللـه! (ويمـد لفـظ الجلالـة). دعينـي أسـبح في هذين الغديريـن الأزرقـين المتلجلجـين في روضـة مـن ريـاض الشـام.
قطام: ولكنني ظننتُ أننا في العراق وأن عينيَّ سوداوان!
عبد الرحمن: سوداوان خصبتان كسواد العراق.
أحدهم: إنَّ هذا السواد بستان قريش.
آخر: صه يا رقيع.. قطع الله لسانك، إنما أفاءه الله علينا بأسيافنا.
قطام: (مخاطبةً عبد الرحمن): أيها المدعي خفيف الدم.
عبـد الرحمـن: (يتابـع الغـزل أو الحلـم): وهاتـان الضفيرتـان الشـقراوان المنسـابتان عـلى جيـد المهـا كجدولـين منسـكبيْن مـن قمـة خـضراء...
قطام: لكن شَعري ليس بأشقر، أيها الكاذب الظريف.
عبـد الرحمـن: أشـقر، أسـود، خـروبي، لا يهـم. إنهما ضفيرتـان كدجلـة والفرات، وأنـا مركـب شراعـي يتنقـل بـين النهريـن، وهـذا الصـدر بـلاد مـا بـين النهرين.
قطـام: كلامـك عـذب وإطـراؤك يدغدغنـي، لكننـي لا آكل معسـول الـكلام، أيهـا المحلـق بـلا أجنحـة.
عبد الرحمن: وكيف يمكن أن أفوز بقلبك؟

قطـام: قلبـي الآن كجلمـود صخـر حطَّـه السـيل مـن عـلٍ. ولكنـه يمكـن أن يصبـح عصفـورة تقفـز مـن غصنهـا لملاقـاة عصفورهـا الـذكي اللـمَّاح المقـدام.

عبد الرحمن: لكن كيف؟

قطام: إن هو غرَّد لحنها.

عبد الرحمن: وما هو لحنها؟ وكيف له أن يعرفه وأن يغرِّده؟

قطام: بالحبل السُري يا عزيزي، بالحبل السُري الذي تمدُّه له.

عبـد الرحمـن: يـا رب، إنـك تزيديننـي شـغفاً وحـيرة وشـقاء. سـأضعها لـك عـلى بلاطـة. أريـدك حليلـة لي عـلى كتـاب اللـه وسـنة رسـوله.

قطام: أنا لا أرفضك، ولكنني غالية ومهري غالٍ.

عبدالرحمـن: اطلبـي وتمنّـي، أي مهـر تريديـن. لـبن العصفـور عـلى جناحـيْ فراشـة إن شـئت.

قطـام: مَهـر! (تبتسـم وتهـز رأسـها اسـتنكاراً) وأيُّ مهـر! هـو رأس لـو وضعتَـه في كفَّـة، ووضعـت خزنـة كنـوز بلقيـس التـي غزاهـا سـليمان وعـرش سـبأ الـذي اختطفـه الجـن في أخـرى، لرجحـتْ كفَّتـه.

عبـد الرحمـن: (متوجهـاً إلى قطـام) أفصحـي، أسـتحلفك بقاهـر الوسـواس الخنـاس.

قطـام: مَهـر لا يقـوى عـلى دفعـه إلا رجـل يسـتحق الفـوز بقلـب قطـام. وقـد أقسـمتُ ألا أهبَـه لأحـد، وألا أدع رجـلاً يدخـل مخدعـي إلاَّه.. مَهـر يُدخـل صاحبـه صفحـات التاريـخ، حيـث لا وجـود للنكـرات.. مَهـر يغـيّر وجـه تاريـخ العـرب والعجـم، ووجهـه الآخـر أيضـاً.

أحدهم: الوجه الآخر لمن؟

آخر: للتاريخ يا فهيم. ألا تعرف أن للتاريخ وجهين؟

ثالث: من يعش يتعلم.

عبد الرحمن: الله أكبر كبيرا، والحمد لله كثيرا، أي رجل هذا الذي تبحثين عنه؟ ساعديني على أن أكون ذلك الرجل.

قطام: (باستخفاف متعمد) أنت؟ (وتقيسه من فوق إلى تحت بإشارة من سبابتها)

عبدالرحمن: ليتنيه!

قطام: لكنهم يقولون عنك إنه لم يمتدحك أحد ولم يذمَّك أحد، أي إنك عدم المؤاخذة فص كُر، لا تنفع ولا تضر.

عبد الرحمن (يشعر بالإهانة والتحدي معاً): فَشَروا، جرّبيني. رأس مَن تريدين أن أضع بين يديك الجمرتين؟

قطام: اقترب يا عاشقي.

(يقترب بخفة، بحركة تشبه حركة الطفل إذ تستدعيه معلمته)

عبد الرحمن: يا معشوقةً تقلب الكيان.

قطام: رأس قاطف الرؤوس ومزهق الأرواح في النهروان.. رأس من وضع أبي وأخي وجميع رجالي تحت التراب، ثم صلى عليهم صلاة الجنازة وتركني وحيدة كزهرة برية عطشى في الصحراء العربية، أنام على فراش من رمضاء، وأضع رأسي على وسادة من أشواك، ولا أحلم إلا بتدحرج الرؤوس وظلام القبور.

عبد الرحمن (مصدوماً للوهلة الأولى، ثم مستجمعاً قواه): النهروان؟ ابن أبي طالب؟

قطـام: هـا أنـت قـد بـدأت تفهـم. يـا عبـد الرحمـن، لقـد هبَّـت رياحـك فاغتنمهـا، وحانـت فرصتـك الذهبيـة فاقتنصْهـا.

عبـد الرحمـن: واللـه مـا جـاء بي إلى هـذا المـصر إلا هـذا الأمـر. لقـد تعاهدنـا ثلاثتنـا في كنـف بيـت اللـه الحـرام عـلى قتـل ثلاثتهـم.

قطام: (باستهجان) مَن ثلاثتهم؟

عبد الرحمن: أئمة الضلالة الثلاثة.

قطـام (بحركـة متبرمـة): هـا أنـت تعـود إلى الهلوسـة. قلـت لـك إننـي لا أشـتري خيـالات، فـما أنـت إلا رجـل مـن أطـراف الكوفـة، وأخالـك لا تـزال تقبـض عطـاءك مـن عـلي.

عبـد الرحمـن (يعـض سـبابته): اخفـضي صوتـك، اسـتري عـليَّ، اللـه يسـتر عليـك.

قطام: إذن دعَك من القصص المفبركة، اتركها للمؤرخين، وركِّز على هدفنا.

عبـد الرحمـن (بلهجـة رزينـة): نعـم، هـذا الـذي حكَّـم البـشر في صفِّـين، حيـث لا حُكـم إلا للـه، ثـم مـال عـلى جماعتنـا في النهـروان وحصـدَ رؤوسـهم كسـنابل حزيـران. أبـشري، هـو لـك.

(تنفرج أسارير قطام على نحو ظاهر)

أحدهم: قُل أعوذ برب الفلق.

أحـد أنصـار عـلي: (غاضبـاً ومخاطبـاً عبـد الرحمـن): الرعديـد النكـرة، أتقتـل الـزكي النقـي الـذي شـهد المشـاهد كلهـا مـع رسـول اللـه؟ أتقتـل مـن مـا زالت رائحـة فـراش النبـوة العطـرة تنبعـث مـن ثوبـه الخشـن؟ مَـن لا يـزال يـتردد في أذنيـه صـدى رفرفـة جناحـي جبريـل؟ مَـن عـاصرَ مأثـرة الإسـلام الكـبرى

وتنفَّس عبق الوحي؟ ويْحك، وماذا عن سابقته وقرابته؟
عبدالرحمن (بلهجة أيديولوجية): لا سابقة ولا قرابة في الإسلام. دين الله للجميع، والتنزيل لم يعد في صدور الرجال، إنه الآن بين دفتين، بين أيدي القراء. وصاحبك حكَّم البشر، ولا حُكم إلا لله.
أحدهم: قل أعوذ برب الفلق.
أحد أنصار علي: ألم تحملوه على التحكيم عندما رفع الماكر ابن العاص المصاحف على رؤوس الرماح، وهو يناشدكم ألا تصدقوه، ويقول لكم إن القرآن حمَّال أوجه وإنه أعلم منكم بابن الطليق والطليقة؟
عبدالرحمن: لا حكم إلا لله. هذا ما تقوله آيات الله.
أحد أنصار علي: ولَك يا قميء، عندما كان صاحبي يسمع صوت جبريل وهو يتلو آيات الله البينات على نبيه، كنت أنت تحت دكة سروال أبيك، تسرح مع القمل والصيبان.
عبد الرحمن (بنبرة هتاف): لا حكم إلا لله. تخرج قطام وفي أذيالها عبد الرحمن)

المشهد الثالث

[سجال حاد بين أنصار علي وأنصار معاوية]
أحد أنصار معاوية: ما قاله ابن ملجم صحيح، صحيح ميةٌ في الميةٌ. ألم يُقتل المبشرون بالجنة تحت قيادته؟ ألم يُتهم بتحريض ثوار الأمصار على قتل إمام المسلمين وهو صائم يقرأ القرآن؟ ذلك الذي لولاه لضاع التنزيل؟ وعلى الرغم مما يقال بأنه لم يشارك في أية وقعة من وقعات

المسلمين، فإنه كان حاضراً دائماً بأمواله؛ والجهاد بالمال كالجهاد بالنفس، إن لم يكن أعز، عندما يعز المال. ولولا ابن هند وأبي سفيان لظل دمه الزكي القاني الذي لطَّخ قميصه الأبيض الناصع نازفاً في أقاصي الأمصار، ضائعاً بين سيوف العرب والعجم.

أحد أنصار علي (ساخراً): أنعِم وأكرِم. أيُترك ابن الطليقيْن معتصماً بالقصور والحُجَّاب والعسس وغارقاً في الدمقس والحرير والديباج والذهب والحريم ويُقتل العادل، الصراط، مُقيم الحق ومُزهق الباطل، هذا الذي رفع يدَه نبيُّنا العظيم قرب الغدير ودعا باعثه بالحق وحبيبه رب العزة أن يوالي من والاه ويعادي من عاداه؟ هذا الذي لا فرق عنده في العطاء بين أشراف القبائل وصعاليكها، بين العرب والعجم والموالي، بين من يشاركون في الفتح ومن يقعدون في بيوتهم؟ ذلك الذي يقسِّم بيت مال المسلمين بالقسطاس، ثم يكنسه بيديه الكريمتين، ويصلي ببابه ركعتين؟

مثقف يساري من العصر: يا سلام! هذا هو التوزيع العادل للثروة. نعم، من كلٍّ حسب طاقته، ولكلٍّ حسب حاجته. أليست هذه هي الاشتراكية بشحمها ولحمها؟

مثقف من التاريخ: ما شاء الله! من أي قرن أنت يا أخا العرب؟

الأول: من القرن الخامس عشر للهجرة يا زميل.

الثاني: لا طاقة ولا حاجة ولا بطيخ. لا تُسقطوا مفاهيم عصركم على عصرنا. كل ما في الأمر أنه كان لدينا امبراطورية إسلامية مترامية الأطراف، متعددة الأمصار، متنوعة الأعراق، فاحشة الثروات، فتحها الله لنا وعلينا،

عـلى رأسـها إمـام يقسـم أمـوال المسـلمين بالقسـطاس، ويكنـس بيـت المـال بيديـه، ويصـلي فيـه ركعتـين. فـما رأيكـم دام فضلكـم؟

مثقـف ثالـث: هـذه قسـمة ضيـزى. هـل يُعقـل أن يكـون عطـاء ابـن ملجـم الـذي لا عمـل لـه سـوى التآمـر عـلى أمـير المؤمنـين والتربـص بـه، كعطـاء الحسـن والحسـين؟ إننـا بحاجـة إلى إعـادة توزيـع الـثروة وليـس إلى عدالـة توزيعهـا يـا معـشر المسـلمين.

مثقـف رابـع: هـذه تكيـة. وكل تكيـة يـأتي عليهـا يـوم تنطفـئ نارهـا وتصـدأ طناجرهـا وتغلـق أبوابهـا.

مثقـف خامـس: لقـد توَّهتمونـا، فلـم نعـد نعـرف مَـن هـو الشـهيد ومـن هـو القتيل.

أحدهـم (صائحـاً محتجـاً): هيـه، أنـت يـا مخـرج، هـل هـذه مسرحيـة أم حلقـة دراسـية؟ لقـد جئنـا للإمتـاع والمؤانسـة، وليـس للتنظـير والمشاكسـة، أنـا أحتـج. مـا بقـي إلا أن تسـقطوا التاريـخ عـلى انهيـار الاتحـاد السـوفييتي والاشـتراكية.

المخـرج: (بحركـة مـن يديـه يحـاول العـودة بهـم إلى المسـار السـابق، فيرفـع صوتـه): الأخ هنـاك معـك حـق. لنعـدْ إلى الحبكـة.

أحدهـم: أقـول لكـم الصراحـة يـا جماعـة، الصـلاة وراء عـلي أزكـى، والطعـام عـلى مائـدة معاويـة أشـهى، فأيهـما تختـارون؟

آخـر: هـذه انتهازيـة، حـدِّد موقفـك، هـل تريـد الأزكى أم الأشـهى؟ هـل تريـد آخـرة عـلي أم دنيـا معاويـة؟

ثالـث: (كأنمـا يناجـي عليـاً): سـامحنا يـا أبـا الحسـن. نريـد أن نـرى وجـه ربنـا،

أن نعيـش مثـل بقيـة خلـق اللـه، أن نحـدِّث بنعمـة ربنـا. لقـد فتـح اللـه لنـا أبـواب هـذه الدنيـا عـلى مصاريعهـا.. خزائنهـا وخيراتهـا.. أرضهـا وزرعهـا وضرعهـا.. حسـانها وغلمانهـا ومُتعهـا. فلـماذا تحرمنـا مـن طيبـات مـا رُزقنـا؟

رابـع: لمـاذا تـصروُّن عـلى البقـاء في صفِّـه يـا غـواة الفقـر؟ لقـد انفـضَّ عنـه حتـى أهـل بيتـه، فهـذا عقيـل يذهـب إلى ابـن أبي سـفيان، فيحمّـل لـه ثلاثـة جـمال مـن أمـوال اللـه .. لسـداد ديْنـه ووصْـل رحمـه والإنفـاق عـلى نفسـه، وهـذا ابـن عبـاس يحمـل بيـت مـال المسـلمين في البـصرة برمتـه، بيـت مالنـا الـذي ولاَّه عليـه أمـير المؤمنـين واسـتأمنه، ويذهـب بـه إلى جـوار الكعبـة كي يحميـه، وهـؤلاء الذيـن حمَلـوه عـلى الحـرب والتحكيـم، يقاتلونـه ويكفّرونـه ويخططـون لقتلـه علنـاً. لقـد انفرطـت مسـبحته، فادركـوا أنفسـكم قبـل فـوات الأوان والتحقـوا بابـن هنـد وأبي سـفيان، تدركـوا الدنيـا.

خامـس: أُعـذرني يـا أبـا الحسـن، إنـك ثقيـل عـلى ضمائـر النـاس، فترجَّـل عنهـا وأرحْهم واسـترحْ.

المشهد الرابع

[تدخل قطام من جهة، ويدخل عبد الرحمن من جهة أخرى، يقتربان في لهفة بادية للعيان]

عبد الرحمن: (ملوِّحا بسيف ذي رأسين) قطام، حبيبتي.

قطام: (ترى السيف فتبتهج) عبُّودة، حبيبي.

أحدهم: قل أعوذ برب الفلق.

قطام: (تضع يدها بيده بدلال مصطنع، وتشير إلى السيف) لقد خطف لمعانه بصري، هل سقيته؟

عبد الرحمن: أربعين يوماً وليلة بالسم الزعاف، حتى لفَظَه. لن ينجو من أي خدش.

قطام: جميل! رائع! عظيم!

عبد الرحمن: مَن؟ أنا أم السيف؟

قطام: كلاكا، لا فرق. أنت السيف والسيف أنت، أنت لي وأنا لكما. ثلاثتنا واحد. أشعر بأن الأرض تميد تحت قدميَّ.

عبد الرحمن: يا أرض احفظي ما عليك.

قطام: الليلة ليلتنا. مع صلاة الفجر، خلف باب مسجد الكوفة، كُنْ هناك متربصاً، والله خير المتربصين. وعندما يدخل ليصلّي بالناس، كنْ بانتظاره. إنها لمعة كلمعة الصراط. وبعدها سأكون لك، كلي لك يا فحلي.

عبد الرحمن: إنني أتوق إلى تلك اللحظة. أنا بانتظارها على أحدِّ من حد هذا السيف. متى يا قطام؟ أنا ظامئ لمائك الفرات، فارِ ظمَئي.

قطام: وأنا ظامئة لسُمه الزعاف، فاطفئ ظمَئي.

عبد الرحمن: متى أرتشف رحيق الشهد من شفتيك؟

قطام: عندما تُفرغ هذا السم في عروقه، فتجفَّ إلى الأبد.

عبد الرحمن: متى أُشبع هذا الجوع المزمن للتجوّل بين كرومك الناضجة، وقطف عناقيد السحر المتدلية منها فوق فمي بمسافة تبتعد كلما اقتربتُ.

قطام: عندما تُشبع فم هذا الفتَّاك من لحمه.

عبد الرحمن: لكنَّ بريق الجوهرتين في عينيك يجذبني ويوقعني في الأسر، فلا أقوى على الابتعاد عنك.

قطام: سأغمضهما على صورتك، إلى أن يلمع بريق سيفك على جبينه.

(يُسمع أذان الفجرُ)

قطام: أزفت الساعة يا حبيبي. أسرع فإنه أول من يصل إلى المسجد.

عبد الرحمن: وداعاً يا حبيبتي.

قطام: بل إلى اللقاء، يا بطلي، موعدنا هناك، في جنة الخلد، مع الصدّيقين والنبيين والشهداء. لا تقلق يا بعلي، فمهري الآن مقبوض "على داير مليم". وسنلتقي في المكان الذي طالما حلمتَ به، في الروضة بين الجدولين المنسابين خمراً وعسلاً ولبناً. وسألدُ لك الحوريات العين والولدان المخلدين. هناك حيث لا جوع ولا ظمأ ولا شيخوخة ولا هم يحزنون.

عبد الرحمن: إلى اللقاء.

قطام: استل سيفك أيها الصنديد، ولا تغمدْه إلا في جبهته.

عبد الرحمن: (يخرج مسرعاً وشاهراً سيفه): أنا سيف الله المسلول.

أحدهم: ما أنت إلا موس الشيطان الكباس، يا إمَّعة.

آخر: قل أعوذ برب الفلق.

(تبرق السماء وترعد. تهتز الأرض وترتعد. تُكسف الشمس ويُخسف القمر. يدلهمُّ الظلام ويعمُّ الطوفان. تتصادم الكواكب وتخرج المجرات عن أفلاكها. تجلجل في الأرجاء ضحكة هستيرية ويسمع صوت هادر)

- يا طلقاء العالم اتَّحدوا! لقد آلت إليكم، فعضُّوا عليها بالنواجذ.

(إضاءة. ذهول. خروج)

وزيرنا الجديد

إبراهيمي ليبرالي*

* كُتبت هذه المسرحية عقب إبرام اتفاقية وادي عربة مع العدو الإسرائيلي في عام 1994 بعنوان "وزيرنا الجديد شرق أوسطي من قاع الدست" في سياق مشروع الشرق أوسطية حينذاك، ولم تُنشر المسرحية منذئذ. ومع إعلان الحلف العربي- الإسرائيلي الإبراهيمي مؤخراً، ارتأيت أن أستخدم كلمة "إبراهيمي" بدلاً من "شرق أوسطي"، لما تحمله التسمية الجديدة من مقاصد عقيدية ونتائج استراتيجية خطيرة، ما اقتضى الإشارة.

وزيرنا الجديد إبراهيمي ليبرالي

المشهد الأول: باحة مدرسة القرية

(مساعد المدير، المعلمون والأذَنة منشغلون كالنمل يذهبون ويجيئون باتجاهات مختلفة متقاطعة متعاكسة متوزاية، يصطدم أحدهم بالأخر، أحياناً رأساً برأس أو كتفاً بكتف أو قفا بقفا. تُسمع تعليقات بعضهم:

المعلِّم 1: عمى

المعلم 2 : فتِّح

المعلم 3: آسف

المعلم 4: دستور

المعلم 5: يا ساتر

المعلم 6: بارْدون...

مساعد مدير المدرسة: (يدخل) شو فيه يا جماعة؟

المعلم 1: منذ رنَّ جرس الهاتف اللعين قبل لحظات وتلقَّى المكالمة الغامضة من مكتب الوزير فقدَ الرجل توازنه وانقلب كيانه وصار يكلم نفسه. لقد جُنَّ وجَنَّنا معه.

معلم اللغة العربية: معلوم، الرجل يقف على كف عفريت. فهذه لحظة

تاريخية حاسمة في حياته، إما أن ينال مكرمة "المدرنة"، أو يبقى مساعد مدير لا بكش ولا بنش حتى التقاعد، ومجهول المصير يمكن أن يطير برنَّة هاتف أخرى.

معلم التربية الإسلامية: اللهم نجِّنا من اللايذات والمخفيات والمتربصات.

مساعد المدير: (يتوسل للمعلمين والأذَنة) شوية هِمة يا إخوان، كل شيء يجب أن يكون على أحسن حال، فقد يصل معالي الوزير في أية لحظة في زيارة تاريخية فريدة إلى مدرستنا وقريتنا المغمورتين.

(يطلب منهم جمع القباقيب وأباريق الوضوء المتناثرة تحت الطاولات ووضعها في أكياس سوداء وإخفائها في المخزن. يشارك شخصياً في هذه الحملة).

معلم التربية الإسلامية: (محتجاً يُمسك بتلابيب الكيس الذي يحمله مساعد المدير) اعطني قبقابي، اعطني إبريقي، لن أسمح لك بمصادرة أغراضي، على جثتي!

مساعد المدير: سايق عليك النبي، خلِّي هاليوم يمر على خير.

المعلم: مش ممكن.

(في هذه اللحظة يدخل عدد من الأشخاص، يتقافزون وهم يرتدون ملابس مهرجين ويقومون ببعض الألعاب البهلوانية، فاتحين بذلك الطريق أمام الوزير ومعلنين عن قدومه. مساعد المدير ومعلم التربية الإسلامية يتجاذبان الكيس ويعلو صوتهما. أحد المرافقين ينهرهما ويقدم الوزير على طريقة السيرك).

أعزائي المشاهدون، عفواً، المربُّون في هذه المدرسة المنسية، إنكم تتشرفون

الآن بالتعرف عليه، فلتشرأبَّ أعناقكم ولتبحلق عيونكم كفناجين القهوة السادة لرؤية طلعته البهية ولتشنِّف آذانكم لسماع صوته الشجي ولتتفتح خياشيمكم لشمِّ عطره الباريسي الذي يتطاير رذاذه حوله ويسبق خطواته. إليكم النجم الإبراهيمي الساطع..

(دم دم دم، تدق الطبول، وتعزف فرقة المدرسة موسيقى نشيد "طير اخضر طير مبرقع". يظهر الوزير الجديد.. شخص بدون ملامح، يرتدي بدلة آخر طراز ماركة بيير كاردان. يتقدم نحو المعلمين الذين اصطفُّوا للسلام عليه وهو يلعب الثلاث ورقات بقلم ودفتر وكتاب مدرسي بمهارة فائقة يقذفها في الهواء ويلتقطها دون أن يسقط أي منها على الأرض).

مساعد المدير: تصفيق لمعالي الوزير الجديد. مرحى مرحى مرحى.

المعلمون والطلبة والأهالي: (يرددون) مرحى مرحى مرحى.

(المعلم لا يزال يطالب بقبقابه وإبريقه).

الوزير: (يسمع) ماذا تقول يا أستاذ؟

مساعد المدير: لا تهتم معاليك، إنه يهذي. (يتقدم بسرعة لمصافحته ويعرِّف بنفسه) محسوبك مساعد المدير، معاليك.

معلم التربية الإسلامية: (بإصرار) أريد قبقابي وإبريقي، لا أتنازل عنهما.

الوزير الجديد: ما حكاية القبقاب هذه؟ ولماذا تريده؟

المعلم: ألبسه عند الوضوء وفي المرحاض وأطخ به الرؤوس اليابسة للأولاد المشاغبين والكسالى والفايعين، ولي فيه مآرب أخرى.

الوزير: (مخاطباً مساعد المدير) اصرف له شبشب بلاستيك من الحوزة

المدرسـية.
المعلم: (بنفَس متقطع) لا بديل عن قب قا بي.
الوزير: (ضجِراً، يشيح بوجهه عنه) خلِّصنا ياه.

المشهد الثاني: قاعة المدرسة المغمورة

(اجتـماع الوزيـر الجديـد بالأهـالي والمعلمـين. في الصـف الأمامـي للقاعـة يجلـس مديـر الناحيـة ورئيـس وأعضـاء المجلـس القـروي والمخاتـير ووجهـاء عشـائر القريـة وشـيخ الجامـع. عـلى المنصـة كـرسي وطاولـة مغطـاة بشرشـف طرَّزتـه أمهـات التلاميـذ، وعليهـا جـرَّة تحتـوي عـلى أزهـار بريـة. عـلى طـرف المـسرح تقـف الفرقـة الموسـيقية للمدرسـة المنسـية. مسـاعد المديـر يقـدم الوزيـر الجديـد.)

مسـاعد المديـر: (متحمسـاً) يـا أهـالي قريتنـا المنسـية الكـرام، أيهـا الآبـاء والمعلمـون والتلاميـذ والضيـوف الأفاضـل، يشرفنـي ويسـعدني ويدغدغنـي ويرضينـي ويكفينـي أن أُقـدم لكـم رجـلاً ولا كل الرجـال، رجـل العـصر وابـن المرحلـة، أبـا التربيـة الحديثـة جـداً آخـر طبعـة والمـربي الخطـير وأحـد أبـرز مؤسـسي المدرسـة التطبيعيـة الحداثيـة في التربيـة، الفلهـوي أبـاً عـن جـد، والأشـطر بـين الشـطار، الـذي لا يعـرق كالبهائـم التـي تقـوم بالأعـمال الشـاقة، ولا ينـدى لـه جبـين كضعـاف الشـخصية، ولا تنكـسر لـه عـين كبنـات البيـوت، ولا يقيـم وزنـاً لترَّهـات التاريـخ وسفاسـف الحقـوق الوطنيـة والمسـاخر القوميـة، يشرفنـا اليـوم بافتتـاح مدرسـة القريـة باسـم جديـد لنـج: "المدرسـة

التطبيعيــة الإبراهيميــة". أُقــدم لكــم وزيرنــا الجديــد ليفهمكــم يــا بَجَــم برنامجــه الخــلاق للإصــلاح والتطويــر التربــوي.
(الفرقــة الموســيقية المدرســية تــؤدي نشــيد "عــاش الوزيــر الجديــد". مســاعد المديــر بملابــس مهــرِّج ينــزل فجــأة مــن الســقف إلى المنصــة. يضــع الكــرسي فــوق الطاولــة وبحركــة أكروباتيــة يقفــز فــوق الكــرسي ويقــف عــلى الحافــة العليــا لظهــره ويحافــظ عــلى توازنــه برشــاقة ظاهــرة.)
أصــوات مــن القاعــة: يــا ســلام! يــا إلهــي! أيــش هالحركــة القرديــة الرشــيقة؟ يــا ســبحان اللــه! (تصفيــق استحســان للحركــة، لا ينتبهــون إلى أنــه مربــوط بالســقف بخيــوط دقيقــه لا تُــرى عــن بُعــد.
الوزير الجديد: باسم السلام والتعايش، باسم هذه الحمامة..
(ضحك وتغامز بين الجمهور. أحد المرافقين يهمس في أُذنه.)
الوزيــر الجديــد: (ينتبــه ويعلِّــق) لا يــروح فكركــم لبعيــد، هــذه حمامــة ســلام حقيقيــة .

الوزيــر الجديــد: (يكمــل) باســم هــذه الحمامــة المحروســة في الجــرَّة التــي ترونهــا أمامكــم بانتظــار انطلاقهــا إلى فضــاءات الــدول الإبراهيميــة الأخــرى الرحبــة، وهــي مــن الذريَّــة الصالحــة والســلالة المقدســة للحمامــة التــي حملهــا ســيدنا نــوح عــلى ظهــر ســفينة إنقــاذ الخليقــة، أبــدأ بتــلاوة الخطــوط العريضة لبرنامجــي التربــوي الإبراهيمــي:
(يُخــرج قلــماً مــن جيــب ســترته، وبحركــة ســحرية يتحــول إلى عصــا يــضرب بهــا الجــرة فتنكســر وتطــير منهــا حمامــة مدهونــه باللــون الابيــض فــوق رؤوس

الحاضريـن، وعيـون الجميـع تقريبـاً تتابعهـا إلى أن تخـرج مـن بـاب القاعـة.)
أحد مرافقيه وحُرَّاسه: طيري فعين إبراهيم ترعاكِ.
الوزير الجديد: (يشرح) أولاً، في مجال المناهج التعليمية :

1. التاريخ:

لا أريـد أن أزوِّر التاريـخ كـما يزعـم الزاعمـون وينعـق الناعقـون، بـل أن أضعـه في نصابـه، فهـو واقـف عـلى رأسـه منـذ قـرون، وكل مـا في الأمـر أننـي أود أن أوقفـه عـلى قدميـه، فـلا يعـود تاريـخ صراعـات ودمـاء وعـداء وريبـه، وإنمـا تاريـخ سـلام وتعـاون وتعايـش وثِقـه. أريـد أن تنـسى أجيالنـا القادمـة وإلى الأبـد التصـورات الموروثـة الباليـة التـي لقَّنتهـم أن شـعباً اقتَلـع آخـر مـن أرضـه واسـتوطن مكانـه وعليـه أن يعـود إلى حيـث أتى. تصـوروا مـا يمكـن أن يحـدث لـو صحَّ ذلـك. إذن لطالبنـا جميـع سـكان الأميركيتـين وأُسـتراليا، يعنـي ثـلاث قـارات، بالعـودة إلى أوروبـا. دعونـا نأخـذ مثـالاً أقـرب مـن واقعنـا. أنتـم أيهـا السـادة رئيـس وأعضـاء المجلـس والمخاتـير، ألم يـأت أجدادكـم مـن الجزيـرة العربيـة؟ فهـل تقبلـون بـأن يُطلـب منكـم العـودة إلى هنـاك باعتباركـم غـير أردنيـين؟

أصوات من القاعة: لا، لا أعوذ بالله، شو هالحكي؟ مش ممكن.
الوزيـر الجديـد: وعليـه سـيكون اسـم كتـاب التاريـخ المـدرسي الجديـد "تاريـخ

الـشرق الأوسـط الإبراهيمي".
(تصفيق. يُعزف نشيد عاش الوزير الجديد)
صوت من القاعة: يا رب لطفك!

2. الجغرافيا

الوزيـر الجديـد: (يتابـع) سـنعمل عـلى إلغـاء حـدود سـايس بيكـو المشـؤومة التـي طالمـا رفضناهـا. فقـد قضينـا عمرنـا نحلـم بتوحيـد المحيـط الهـادر والخليـج الثائـر، بينـما كنـا في الحقيقـة نعـضُّ عـلى تلـك الحـدود بالنواجـذ.
(هتاف من القاعة) تسقط سايس بيكو.
الوزيـر الجديـد: الأطلـس الجديـد، آخـر طبعـة، سـيزيل تلـك الحـدود المصطنعـة والتسـميات الجوفـاء، وسـيحقق حلـم الوحـدة. لكـن هـذه المـرة في إطـار أوسـع وأشـمل وأكـثر إنسـانية. سـتنهار الحواجـز الحدودويـة أمـام سـيل البضائـع والأمـوال والأفـراد. دَعـوا كل شيء وكل شـخص وكل شـعب يسـيل في مجـراه ليصـب في المجـرى الأكـبر، السـيل في الـوادي، والـوادي في النهـر، والنهـر في البحـر. ومـن هـذه المنطلقـات، سـيكون اسـم كتـاب الجغرافيـا المـدرسي الجديـد "جغرافيـة الـشرق الأوسـط الإبراهيميـة".
(تصفيق. موسيقى نشيد عاش الوزير الجديد)
صوت من القاعة: يا رب لطفك!

3. التربية الدينية

الوزيـر الجديـد: قولـوا لي أيهـا الأخـوة والأخـوات هـل يقبـل القـرن الحـادي

والعشرون أن يسود الحقد والشك والنزاع بين أبناء العمومة الذين لم يخرجوا بعد من الجد الخامس لأن المشيئة الإلهية التي لا تُرد جعلت أحدهما ابناً للسيدة، والآخر ابناً للجارية مع أن أباهما واحد، خليل الرحمن وأبو الموحدين؟ أو لمجرد أن أحدهما وُضع في واد غير ذي زرع درءاً للفتنة بين الأخويْن بالحكمة الأبوية، بينما الآخر أمطرت عليه السماء مناً وسلوى وسالت الأرض تحت قدميه لبناً وعسلاً؟ هل يُعقل ذلك؟ صحيح أن النفط لم يكن قد اكتُشف في ذلك الوادي حينئذ، إلا أن ينبوع ماء زلال دائم أثمن من النفط تفجَّر فيه. هذه يا إخواني أخواتي ليست سوى اختلافات صغيرة لا تُذكر أمام المشترك الأعظم: الديانة الإبراهيمية المقدسة. لقد آن الآوان يا أهلي وعشيرتي وأبناء جلدتي من أحفاد سام بن نوح لتحكيم العقل والمصلحة وقبول الواقع الصلد بدلاً من التقيد بأصفاد الأوهام التاريخية والدينية. آن الأوان لتعايش جميع الديانات السماوية الثلاث بل وتوحيدها في ديانة واحدة إبراهيمية. وعليه سيكون اسم كتاب التربية الإسلامية المدرسي الجديد "التربية الدينية الإبراهيمية"
صوت من القاعة: يا رب لطفك!

4. اللغة

الوزير الجديد: أيها الأخوة والأخوات الأهالي، زملائي المعلمون، أبنائي الطلبة، لقد درَجنا منذ قرون على وصف اللغة العربية، بأنها الأجمل، ويرى فيها الشاعر حافظ إبراهيم بحراً في أحشائه الدرُّ كامن. وهي مقدسة لأنها لغة الإعجاز، لغة القرآن الكريم، وفريدة لكونها لغة الضاد

التـي لا يوجـد في سـواها مـن لغـات الأمـم حـرف/ صـوت الضـاد، مـع أن الدكتـورة إنعـام الـور المتخصصـة في اللسـانيات تـرى أن هـذا الـكلام خرافـة. لكـنْ نظـراً لأن مناهجنـا مـن الآن فصاعـداً سـتكون توحيديـة لا تفريقيـة، وإدماجيـة لا إقصائيـة، تحـت ظـلال شـجرة الديانـة الإبراهيميـة الوارفـة، فـإن هـذه النظـرة الأحاديـة تمثـل نوعـاً مـن العنصريـة والتمييـز عـلى أسـاس اللغـة، الأمـر الـذي يشـكل انتهـاكاً صارخـاً للمعايـير الدوليـة لحقـوق الإنسـان ضـد شـقيقتها اللغـة العبريـة، عـلى الرغـم مـن أن اسـم كل منهـما يتألـف مـن الحـروف نفسـها، مـع اختـلاف موقـع حـرف واحـد في الاسـم، وهـو البـاء (عربية/عبريـة). هـذا فضـلاً عـن أن مـن أهـم وأبـرز وأشـهر النحويـين وعلـماء اللغـة العربيـة، مـن قبيـل سـيبويه، هـم مـن الفـرس المجـوس أعـداء العـرب والعروبـة والعربيـة. وبنـاءً عـلى هـذه المعطيـات سـنشرع في نحـت أبجديـة جديـدة، سـتكون مـن صلـب الحيـاة الجديـدة والحقبـة الجديـدة ومنظومـة القيـم والمبـادئ الجديـدة والواقـع الجديـد، توحيديـة الحـرف، إبراهيميـة المحتـوى.

معلم اللغة العربية : اضرب لنا مثلاً بالله عليك.

الوزيـر الجديـد: أوكيـه، خُـذْ الإعـراب مثـلاً (يفرقـع بالإبهـام والوسـطى مرتـين فيتـدلى أمامـه مـن السـقف سـبورة وطبشـورة، ويكتـب عـلى السـبورة الجملـة الشـائعة، ويطلـب مـن أحـد التلاميـذ قراءتهـا.)

التلميذ الأول: ضربَ زيدٌ عمراً، أستاذ.

الوزيـر الجديـد: خطـأ يـا ابنـي. يجـب أن تقـول بـدلاً منهـا: "صالـحَ زيـدٌ عمـراً"، وتضيـف إليهـا عبـارة : "في مضـارب العـم سـام". وفي النصـوص الأدبيـة

(يقتبس بيتا من قصيدة أمل دنقل الشهيرة: "لا تصالح ولو قالوا لك رأس برأس.. أكلُّ الرؤوس سواء؟" ويطلب من تلميذ آخر كتابتها على السبورة.)

التلميذ الثاني: (يكتب البيت، فتضجُّ القاعة بتصفيق التلاميذ)

الوزير الجديد: (بغضب) كمان خطأ يا ابني. ينبغي إجراء تعديل بسيط على البيت (يكتب على السبورة بنفسه: "بل تُصالح، فكلّ الرؤوس سواء")، لاحظوا يا أولادي أن ذلك يتم في غاية البساطة وبدون الإخلال ببنية القصيدة وفنيتها وحتى بعروض الخليل بن أحمد.

(تصفيق. يُعزف نشيد عاش الوزير الجديد. معلم اللغة العربية يحتج. يتجاهله الوزير)

الوزير: ليكن شعارنا منذ اليوم: إله واحد، دين واحد، لغة واحدة.

صوت من القاعة: يا رب لطفك!

ثانياً، المعلمون

زملائي المعلمون سوف أعتمد نظام الحوافز الذهبي لأن الحوافز مصدر الإبداع والنجاح. فقد نجحتْ الخصخصة والاقتصاد الحر والمبادرة الفردية بفضل الحوافز، وأخفقت الاشتراكية بسبب غياب الحوافز. وبمقدار تفانيكم في تدريس المناهج الجديدة بمقدار ما تحصلون على الحوافز، وهي كُثر: علاوات، إكراميات، ترقيات، مكرمات، أُعطيات، توكيلات، سفرات، مناصب... سأكتب إلى فوق مباشرةً طالباً لكم مثل هذه الحوافز، حفزكم الله جميعاً. غير أن الويل والثبور بانتظار دعاة الحروب والتعصب

القومـي والدينـي والإقليمـي ونبـش أحقـاد المـاضي والذيـن في قلوبهـم مـرض.
(تصفيـق. نشـيد عـاش الوزيـر الجديـد.)
صوت من القاعة: يا رب لطفك!
معلم من القاعة: وماذا عن نقابة المعلمين معاليك؟
الوزيـر الجديـد: (تنحنـح) سـؤال مهـم يـا ابنـي، فيـما يتعلـق بنقابـة المعلمـين، ذلـك الأمـل القديـم الجديـد، الـذي بذلنـا الغـالي والنفيـس مـن أجـل تحقيقـه، أُعلـن أمامكـم مـن عـلى هـذه المنصـة الإبراهيميـة أننـي سـأطعن في قـرار المجلـس الأعـلى لتفسـير الدسـتور الذي يحظـر قيام نقابـة للمعلمين، وسأسـمح لكـم بإنشـاء نقابـة خاصـة بمعلمـي المـدارس التطبيعيـة الإبراهيميـة، وسـابدأ بهـذه المدرسـة الآن. وسأوسـع نطـاق صلاحيـات النقيـب ومجلـس النقابـة ليشـمل التنقيـب عـن كل شيء تريدونـه، عـن الذهـب، عـن النفـط إن شـئتم، نقِّبـوا كـما يحلـو لكـم. وسأسـمح بإجـراء انتخابـات حـرة ديمقراطيـة بالاقـتراع الـسري المبـاشر، ولـن يكـون ارتباطكـم بعـون اللـه سـوى بشـخص واحـد وهـو عطوفـة مديـر الناحيـة الجالـس بينكـم الآن كأخ وأب وصديـق. وفيـما عـدا ذلـك فأنتـم سـادة أنفسـكم ونقابتكـم ولكـم الحريـة وصـون الحقـوق.
أحد ممثلي الأهالي: وما ذا عن تفاعل المدرسة مع البيئة؟
الوزيـر: سـؤال في محلـه، حضـاري وأخـضر. سأسـتخدم نفـوذي لـدى مديـر الأشـغال العامـة في الناحيـة مـن أجـل ربـط القريـة بطريـق الحريـر الجديـد.
أحد الأهالي: ما هو طريق الحرير الجديد يا بيك؟
الوزيـر الجديـد: في الحقيقـة هـو العـودة إلى الطريـق القديـم، طريـق حيفـا

– بغداد، لكن الطريق الجديد هو الذي سيغير مجرى حياتكم ويقلبها رأساً على عقب، وستقولون باي باي للفلاحة وشغل الثيران، ويا هلا بالسياحة ورخاء الإنسان.

امرأة من الأهالي: سياحة يا بيك؟

الوزير الجديد: نعم، وسنعمل على تعيين المخلصين من النشامى بينكم في شركات القطاع الخاص الحريصة على حماية طريق الحرير، فالحرير الخالص يا أعزائي يستحق الحراسة. وبذلك ستحصلون على راتبين شهرياً، أحدهما من التقاعد العسكري، والثاني من شركات الحراسة، اللهم لا حسد (يدق على الخشب).

امرأة أخرى: الحرير ماغيره؟ بسمع عنه، وزوجي بظل يوعدني بيه، لكن ما عمري لمسته ولا شفته.

الوزير الجديد: أيوة ما غيره يا ستي. ما الغريب في الأمر؟ ستشترون عناقيد العنب المستورد بالحبة. وكل حبة عنب سيُلصق عليها "ليبل" مكتوب عليه باللغة الإبراهيمية الموحدة: "إنتاج أرض السلام الإبراهيمي الدافئ".

المرأة نفسها: يا حبيبي، بالحبة؟ والله سمعة!

الوزير الجديد: (بالإنجليزية) يس مادَم. وإذا عُقد قران تكنولوجيا ورأس مال أبناء عمومتنا على الطاقة البشرية الكامنة في قريتنا على السُنَّة الإبراهيمية، صدِّقوني ستصبح عظامكم ذهباً.

صوت من القاعة: ذهب حقيقي؟

الوزير الجديد: ذهب 24 قيراط، الله وكيلكم، ولن يمر وقت طويل قبل

أن تـروا سـلة عمـلات في كل بيـت، دولار، باونـد، يـن، يـورو، شـيكل، دينـار.. إلـخ، تغرفـون منهـا مـا لـذَّ وطـاب لكـم مـن العمـلات. أمـا تصاريـح العمـل فسـتحصلون عليهـا مـن عطوفـة مديـر الناحيـة بسـهولة ويُسر.

مديـر الناحيـة: (مبتسـماً، يهـز رأسـه عـدة مـرات ويـدق صـدره اسـتعداداً لتنفيـذ الإجـراءات اللازمـة) عنـدي ولازم ذمتـي معاليـك.

الوزيـر الجديـد: أيهـا الأخـوة الإبراهيميـون، أيتهـا الأخـوات الإبراهيميـات، أُحييكـم والشـلوم عليكـم وعـلى الـلي خلَّفوكـم. (يحيِّـي الجمهـور بكلتـا يديـه محـركاً الأصبـع الوسـطى لـكل يـد باتجاههـم . فرقـة المدرسـة تـؤدي نشـيد وطنـي حبيبـي الإبراهيمـي، يـوم ورا يـوم أمجـاده بتكـبر، وانتصاراتـه ماليـة حياتـه.. وطنـي.. وطنـي الإبراهيميـــــــــــــــي)

المنشد: (يقف في مقدمة المسرح، وخلفه الفرقة الموسيقية والجوقة)

أرضنا سماؤنا مياهنا .. إبراهيمية،

الجوقة: (تردد) إبراهيمية،

المنشد: أفكارنا آمالنا حياتنا.. إبراهيمية ،

الجوقة: إبراهيمية،

المنشد: أكلُنا شُربنا لبسُنا..كلّها إبراهيمية،

الجوقة: إبراهيمية،

المنشد: حروفنا فنوننا آدابنا.. إبراهيمية،

الجوقة: إبراهيمية،

المنشد: حكامنا أحزابنا شعوبنا..إبراهيمية،

تررم تررم تررم.

(الموسيقى تزداد صخباً. الوزير ينفعل ويؤدي رقصة السلام الإبراهيمي. عملية "ستربتيز" كاملة يؤديها على المسرح بصحبة الموسيقى الإبراهيمية. يبدأ بخلع ملابسه قطعة قطعة، وقبل إلقائها فوق رؤوسهم، يُريهم ماركاتها الفاخرة: ماركس أند سبنسر، ييف سان لوران، بيير كاردان... الإضاءة تخفت، فيصبح من الصعب على الجمهور تبيُّن شكله أو جندره. يقع اشتباك على الملابس في القاعة. يصدر صوت إذاعي جهوري من جهة غير معلومة.)

الصوت: سيداتي آنساتي سادتي الإبراهيميون والإبراهيميات، ها هي بُقج السلام الإبراهيمي تهطل عليكم كالمطر، وأول الغيث قطرة.

صوت من القاعة: يا رب لطفك!

(بقعة ضوء تُسلَّط على نزاع بين اثنين من أفراد الجمهور على سروال الوزير الداخلي من ماركس أند سبنسر، وقد خرج كل منهما بقطعة في يده. بقعة ضوء أصغر تُسلط على قفا السروال الذي رُسمت عليه يدان تتصافحان تحنو عليهما يد ثالثة أكبر، وقد كُتب تحت الرسم باللغة الإبراهيمية الموحدة "بُقجة السلام الإبراهيمي".

(إطفاء. ظلام وفوضى يسودان القاعة. صوت يخرج منها)

- لطفك يا رب!

نصوص مُمسْرَحة

حكاية موت عقلة السهيان

[المسرحية مصمَّمة وتؤدَّى على مستويَيْن متمايزيْن ومتداخليْن اعتماداً على نصَّيْن: أصيل، وهو رواية "قصة موت معلن" للروائي الكولومبي غابرييل غارسيا ماركيز، ودخيل، وهو "حكاية موت عقلة السهيان" لكاتب أردني مجهول، أو طلبَ عدم ذكر اسمه ربما لرداءة نصه، أو درءاً لغضب "أبو عيون جريئة". ومن الطبيعي إذن أن تكون خشبة المسرح مقسَّمة إلى قسمين/حيِّزيْن، أحدهما تدور عليه أحداث "قصة موت معلن"، والثاني تدور عليه أحداث "حكاية موت عقلة السهيان"، ويفصلهما خط وهمي يسمح بالتنقل بينهما، حيث يتم تسليط بقعة ضوء على أحدهما بحسب الاقتضاء.]

المشهد الأول

شخوص المسرحية في النص الأصيل:

الكاتب الأصيل، الكاتب الدخيل، المخرج، الباحث، سنتياغو نصار، أنجيلا فيكاريو، بياردو سانت رومان، الشقيقان بيدرو وبابلو فيكاريو، بلاسيدا لينيرو، ماريا أليخاندرا، كلوثيلدي أرمنتا، كريستو بيدويا، الأب أمادور، فوستينو سانتوس، لزارو أبونتي، الراوي الأول، الخادمة، الراوي الثاني، والد فلورا ميغيل، والدة سنتياغو، وآخرون بحسب الاقتضاء كذلك.

المخـرج: (يمتطـي خشـبة المـسرح ويقـدم المسرحيـة للجمهـور): جمهـوري الكريـم، "قصـة مـوت معلـن"، كـما هـو معلـوم لـدى حضراتكم/حضراتكـن، اسـم الروايـة المعروفـة للـروائي وكاتـب القصـة القصـيرة والصحفـي الكولومبـي الكبـير والشـهير غابرييـل غارسـيا ماركيـز، الحائـز عـلى جائـزة نوبـل لـلآداب لعـام 1982 "عـلى رواياتـه وقصصـه التـي يمتـزج فيهـا المتخيَّـل والواقعـي في عـالم مركـب غنـي يعكـس حيـاة ونزاعـات قـارة بأكملهـا" وفقـاً لمـا ورد في خطـاب منحـه الجائـزة. وسـنتياغو نصـار هـو بطـل الروايـة القتيل/الضحيـة.

الكاتـب: (يسـير بتـؤدة نحـو وسـط مقدمـة المـسرح، ويقـف عـلى الخـط الوهمـي بـين الحيِّزيـن. الجمهـور يصفـق وقوفـاً، بينـما ينحنـي الكاتـب تواضعـاً) أنـا غابرييـل غارسـيا ماركيـز، وُلـدت لأروي. وروايتـي هـذه التـي تـدور أحداثهـا، بـل حدثهـا الوحيـد إن شـئتم، في إحدى قـرى كولومبيا، تسـجل وقائـع مقتـل الشـاب سـنتياغو نصـار، الـذي اتُّهـم بأنـه فـضَّ بـكارة أنجيـلا فيكاريـو. ونظـراً لأن المسرحيـة برمتهـا تـدور حـول هـذا الحـدث، فقـد فكـرتُ في البدايـة بـأن أعطيهـا عنـوان "مَـن الـذي فـضَّ بـكارة أنجيـلا فيكاريـو؟" لـولا أننـي خشـيت أن تظنـوا أن موضوعهـا هـو فـضُّ البـكارة وليـس مقتـل سـنتياغو المعلـن.

الكاتـب: (يتابـع) في ليلـة الدخلـة يكتشـف العريـس بيـاردو سـانت رومـان أن عروسـه ليسـت عـذراء، فيعيدهـا إلى بيـت أهلهـا في الليلـة نفسـها. وحـين يسـألها شـقيقاها بيـدرو وبابلـو عـن الفاعـل، تخبرهـما بـلا تـردد وبشـكل

قاطع بأنه سنتياغو نصار، فيقرران قتله لغسل شرف شقيقتهما، ويقتلانه فعلاً في فجر اليوم التالي.

المخرج: في المسرحية التي ستشاهدونها الليلة يعرف جميع أهالي القرية تقريباً أن سنتياغو سيُقتل هذا الصباح، إذ أن الشقيقين بيدرو وبابلو أعلنا على الملأ أنهما يخططان لقتله، بيد أن أحداً لم يعمل على منع وقوع جريمة القتل على الرغم من أنهم لم يصدقوا أن سنتياغو هو الذي قام بتلك الفعلة. بل إن القاتلَيْن كانا حريصَيْن على الإفصاح عن نيَّتهما والتباهي بها أمام الجميع، وفي أعماقهما نداء يكاد يقول: يا ناس، أليس بينكم من يمنعنا؟ كما أن جميع شخصيات المسرحية تقريباً غارقون في بحر الندم بأثر رجعي بسبب تقاعسهم عن منع وقوع الجريمة المعلنة.

بلاسيدا لينيرو: أنا بلاسيدا لينيرو، والدة سنتياغو نصار، الضحية المسكين البريء، اكتسبتُ شهرة كبيرة في تفسير الأحلام في القرية، والأهالي يثقون بتفسيراتي، فهي ما خابت مرة، ولذا لا أستطيع أن أغفر لنفسي إساءة تفسير المنام الوردي حول الأشجار والعصافير الذي رآه ابني سنتياغو في الليلة التي سبقت مقتله الوحشي، والذي فسَّرتُه له على أنه فأل حسن. يا ويلي!

ماريا اليخاندرا: أنا ماريا اليخاندرا سيرفانتيس، نار على علَم القرية، ستْرها وغطاؤها. أنا لست بائعة هوى، بل واهبة حب، أنا المرأة الفارهة

ضامـرة الخـصر وناهـدة الصـدر، ذات العينـين المغناطيسـيتين اللتـين تجذبـان أصلـب معـادن الرجـال عـن بُعـد، معشـوقة جميـع شـبان القريـة وملاذهـم الآمـن، صرتُ ألتَهـم الطعـام وينتفـخ جسـدي، وأُغلـق بـاب مضجـع المحرومـين وأتـرك أسرَّتهـم بـلا شراشـف بيضـاء مرشوشـة بالعطـر وبـلا وردات جـوري حمـراء عـلى وسـائدهم، وأُطفـئ النـور الخافـت الـذي يطلـق العنـان لخيالهـم الجامـح، فيسـود الظـلام الموحـش أرجـاء المضجـع حزنـاً عـلى سـنتياغو.

كلوثيلـدي أرمنتـا: أنـا كلوثيلـدي أرمنتـا، صاحبـة دكان بيـع الحليـب، الـذي انتظـرَ فيـه الشـقيقان بيـدرو وبابلـو لقتـل سـنتياغو. أنـا امـرأة متبـصرة، اكتشـفتُ أن الشـقيقين مُنهـكان وأنهـما سـينفذان فعلتهـما مـن بـاب الواجـب ليـس إلا، ولـذا قدمـتُ لهـما زجاجـة "رم" أمـلاً في أن يثمـلا وينسـيا الأمـر مـن أصلـه. لكـن زوجـي لم يسـتمع إليَّ ولم يأخـذ تحذيـري مـن خطتهـما عـلى محمـل الجـد، فقـضى نحبـه مـن هـول الصدمـة عندمـا شـاهد الطريقـة الوحشـية التـي قُتـل بهـا سـنتياغو. وهكـذا خـسرتُ زوجـي وسـنتياغو معـاً.

كريسـتو بيدويـا: انـا كريسـتو بيدويـا، صديـق الـراوي وسـنتياغو المشـترك، صدِّقـوني أننـي طفقـت في أرجـاء القريـة أبحـث في كل قرنـة وزقـاق عـن سـنتياغو كي أُحـذِّره، إلا أننـي لم أجـده، وكأن الأرض انشـقَّت وبلعتـه في أحشـائها، يـا لتعاسـة حظـه وحظـي!

الأب أمـادور: أنـا الأب أمـادور، كاهـن القريـة. والحـقَّ الحـقَّ أقـول لكـم إننـي

في غمرة انشغالي بترتيبات استقبال المطران الذي سيزور القرية فجر ذلك اليوم، ولا سيما التأكد من مشاركة جميع أهالي القرية في الاستقبال ومن أنهم جلبوا عدداً كافياً من الديوك التي يقدمونها هدايا للمطران، لا ليأكلها بل لتُذبح له وتُقطع أعرافها كي يُحضَّر منها الحساء المفضَّل لديه، نسيتُ أن أُحذِّر سنتياغو من خطة قتله. وعندما اقترب قارب المطران من ضفة النهر المحاذية للقرية أطلق صفارته تحية لمستقبليه، لكنه لم يتوقف لإتاحة الفرصة لرعيته للسلام عليه والتبرُّك منه، بل أخذ مرافقوه الديوك وغادروا المكان على وجه السرعة.

فوستينو سانتوس: أنا فوستينو سانتوس، جزار القرية، أعرف جميع الذين يأكلون اللحم وجميع الذين يشحذون سكاكين مطابخهم ولو لفرم البصل. وقد جاء الشقيقان فيكاريو إلى دكاني لشحذ سكينيهما، وسمعتهما يتحدثان عن نيتهما قتل سنتياغو. فقمتُ بما يجب أن اقوم به، وأبلغت ضابط الشرطة المحلي، الذي قال إنه بدوره أبلغ الكولونيل لزارو بالأمر.

لزارو أبونتي: أنا الكولونيل لزارو أبونتي على سن ورمح، لطالما أدَّيت واجبي نحو حفظ أمن القرية وضمان أمان أهلها على أفضل وجه. أعترف بأنني فشلت في منع وقوع جريمة قتل المواطن سنتياغو نصار، لكن ليس بسبب انغماسي في لعبة دومينو كما يقولون، فما أن أبلغني ضابط الشرطة بالأمر، حتى هرعتُ إلى دكان بيع الحليب، حيث كان الشقيقان يتربَّصان، ونزعت السكينيْن منهما وطلبت منهما العودة إلى

منزلهما، وعدتُ إلى لعبة الدومينو معتقداً أنهما إنما كانا يقومان بعملية "بلف"، ليس إلا.

الراوي الأول: (يدخل من الجهة اليسرى للمسرح، ويخاطب الجمهور) سيداتي آنساتي سادتي، في منزل سنتياغو نصار استيقظ الجميع على صفير بوق القارب البخاري الذي يقلُّ المطران، ومن البوابة الأمامية للمنزل الذي لم يكن يستخدمها إلا نادراً، والتي رافقته إليها الخادمة في ذلك الصباح، خرج سنتياغو متوجهاً إلى رصيف الميناء كي يكون، شأنه شأن بقية أهالي القرية، في استقبال المطران.

الخادمة: (ترتعش خوفاً) صدِّقوني، صدقوني، أُقسم لكم بكل مقدس وغالٍ أنني أغلقت تلك البوابة المشؤومة، التي عُثر تحتها على رسالة تحذِّر سنتياغو من أن ثمة من ينتظره لقتله. فكيف لي أن أعرف أنه سيدخل منها؟ أنا لم أقصِّر في عملي ولم أُهمل.

الراوي الأول: (يواصل حديثه) صمتَ بوق القارب وسكتت عن الصياح المباح ديوك القرية التي يقدمها الأهالي هدايا للمطران. عبرَ القارب البخاري وبدأ أهالي القرية المحتشدون على رصيف الميناء الذين خابت آمالهم في التبرك بالمطران بالعودة إلى بيوتهم. كان بعضهم يظن أن سنتياغو سيقتل، وبعضهم الآخر لا يعتقد أنه معرَّض لخطر جدِّي. لكنهم جميعاً كانوا يعلمون أنه مهدد بالقتل على مرأى ومسمع من الأهالي.

الكولونيل لزارو: أنا ضابط مخضرم، أتمتع بخبرة واسعة في هذا المجال. دعوني أشارككم المعطيات التالية التي أخذتُها بعين الاعتبار: في بيت ماريا البهيج، حيث الموسيقيون وحلبة الرقص وفتيات المتعة الخلاسيات اللائي كن يسرِّين عن الرجال غير المشبعين في ليلة الزفاف، كانت ماريا تفضُّ بكارة جيل بأكمله. كما أن أشدَّ ما أقلق قاضي التحقيق هو عدم توفر أية إشارة تُلمِّح من قريب أو بعيد إلى أن سنتياغو هو الذي فعلها، وأن أنجيلا نفسها لم تحدد كيف وأين ومتى حدثَ ما حدث، ومع ذلك، فقد ظلت مُصرَّة على أنه هو الفاعل. فكيف يمكن لسنتياغو إذن أن يفض بكارة أنجيلا؟ بل إن الكاتب ماركيز نفسه وبعظمة لسانه يؤكد أن سنتياغو نصار "مات بدون أن يفهم موته". فكيف لي أن آخذ تهديدات الأخويْن فكاريو على محمل الجد بربكم؟

الراوي الأول: (يمضي في روايته)

بدأ العائدون من رصيف الميناء يتخذون أماكنهم في الميدان لمشاهدة الجريمة التي ستقع وكأنهم سيشاهدون فيلماً سينمائياً من أيامنا هذه. هرع كريستو بيدويا إلى داخل النادي الاجتماعي ليبلغ الكولونيل أبونتي بما حدث. بيد أن الكولونيل لم يصدقه في البداية لأنه كان قد انتزع السكينين من يديِّ الأخوين فيكاريو، ثم تذكَّر أنه نسي السكينين الأخريين المكلومتين اللتين شحذاهما عند الجزار استعداداً لتنفيذ الجريمة المرسومة. وبسبب تباطؤه في الخروج من النادي، وقعت الجريمة قبل أن يصل إلى المكان.

الـراوي الثـاني: (يتدخـل ويشـكك في كلام الأول) لكـن سـنتياغو يـا زميـل ذهـب إلى بيـت خطيبتـه فلـورا ميغيـل، التـي كانـت قـد سـمعت بخطـة قتلـه. وفكَّـرت في أنـه حتـى لـو لم يُقتـل، فإنـه سـيُرغم عـلى الـزواج مـن أنجيـلا كي تسـتردَّ شرفهـا. وفي كلتـا الحالتـين يكـون بالنسـبة لهـا قـد مـات، ولـذا شـعرتْ بالإهانـة والغضـب، وعندمـا وصـل إلى بيتهـا سـلَّمته صنـدوق رسـائله، وتمنَّـت لـه القتـل، لا التوفيـق- كـما هـي حـال العاشـقين المتحضريـن الذيـن ينهـون علاقاتهـم العاطفيـة بـأدب واحـترام- ثـم دخلـت غرفتهـا وأغلقـت بابهـا وربمـا أجهشـت ببـكاء مريـر حتـى غرقـت وسـادتها بالدمـوع .

والـد فلـورا ميغيـل: أنـا والـد فلـورا ميغيـل، خطيبـة سـنتياغو. نعـم، جـاء سـنتياغو إلى بيتـي، وأيقظـتْ طرْقاتـه عـلى البـاب جميـع مَـن فيـه. أبلغتُـه بـأن الأخويـن فيكاريـو يعتزمـان قتلـه، فـردَّ رداً غريبـاً: "إننـي لا أفهـم شـيئاً"، وغـادر المنـزل متوجهـاً إلى بيتـه. في الطريـق سـمعتُ كلوثيلـدي أرمنتـا تـصرخ بـه أن اهـرُبْ أيهـا التعـس، فأطلـق سـاقيْه للريـح.

الـراوي نفسـه: (يؤكـد) صحيـح، وقـد قطـع مسـافة الخمسـين متراً إلى البوابـة الأماميـة لمنزلـه بـلا زمـن، وأخـذ يطرقهـا بقـوة، لكـن أحـداً لم يسـتجب لـه، أو يسـمع طرقـات موتـه.

والـدة سـنتياغو: (يـا ويـلي، لقـد اقتلعـتُ كبـدي مـن أحشـائي بيـدي. فقـد كنـت قـد أوصـدت البوابـة بالـترس للتـو كي أمنـع القاتلـيْن مـن دخـول البيـت

وأحميه من المصير المعلوم لأن الخادمة كذبت عليَّ وقالت لي إن سنتياغو عاد إلى المنزل وإنه صعد إلى غرفته ونام.

الخادمة: (ترتعد) سامحيني سيدتي حباً لله، كذبتُ عليك كي لا يزداد قلقك عليه أو تفعلي شيئاً متهوراً يؤذيه ويؤذيكِ.
الراوي الثاني: (يواصل) عندما لم يفتح أحد البوابة، أدركه الأخوان فيكاريو وأمسكا به وشرَعا في طعنه بالسكاكين بطريقة بدا فيها ذبحهم للخنازير في حظيرة المنزل أكثر رحمة وأقل بشاعة بكثير. وبعد أن خرجت أحشاؤه من بطنه، جثا على ركبتيه، ثم نهض ومشى مسافة مئة متر حول المنزل ودخل من باب المطبخ، ثم هوى على الأرض ووجهه إلى أسفل مثل شجرة اقتلعتها من جذورها رياح عاتية.

المخرج: (يضيق بالراوي ذرعاً) توقَّفْ يا هذا! مَن الذي منحك كل هذه المساحة الواسعة والدور الطويل؟ ألا ترى أنك أقحمت نفسك على النص كي تسدَّ الثغرات الدرامية في المسرحية وترقع الثقوب الفنية التي تعتورها. أنا المخرج آمرك بمغادرة المسرح فوراً.

(الراوي يتوقف ويغادر المسرح)

[أنجيلا فيكاريو ترحل من القرية في محاولة لدفن الفضيحة وشهودها وذكرياتها، وبعد مضيِّ مدة طويلة، يزورها باحث في مكان إقامتها الجديد

بقصد الحصول منها على إجابة عن السؤال اللغز العالق الذي لا يعرف جوابه أحد سواها]:

الباحث: أنجيلا فيكاريو، لقد تكبَّدتُ كل هذا العناء أملاً في الحصول على جواب شاف عن السؤال إياه: مَن الذي فعلها في تلك الليلة الغارقة في البعد والغموض؟

أنجيلا: (من خلف النظارة الطبية وعبر خصلات الشعر الرمادي التي خلَّفها الزمن تجيبه بصوت خافت ونبرة هادئة وواثقة: سنتياغو نصار.

الباحث: لكنكما لم تُشاهَدا معاً في القرية أبداً طوال تلك الفترة.

أنجيلا: (تلتزم الصمت).

الباحث: أنجيلا، قالت لي والدتك إنها انهالت عليك بالضرب المبرح وإنك بكيت بحرقة في تلك الليلة المشؤومة؟

أنجيلا: نعم، بكيت حتى الصباح، لكن ليس بسبب ضرب أمي، سامحها الله.

الباحث: (يكاد يقتله الفضول) لماذا إذن؟ أرجوك قولي شيئاً يفيد بحثي، أو يشبع فضولي على الأقل.

أنجيلا: لأن بياردو سكَنني منذ اللحظة التي أعادني فيها إلى بيت أهلي، وظللتُ أكتب إليه الرسائل إلى أن أعادها إليَّ كاملة، غير مفتوحة.

أنجيلا: (تُطرق لحظات، وتذرف دمعة بدون أن تنظر في عينيه) هل أتيت لنبش القبور؟

الباحث: بل لنبش الحقيقة.

أنجيلا: هذا شأنك إذن.

[ستارة]

المشهد الثاني: النص الدخيل

شخوص المشهد الثاني: المخرج منفرداً one-man show (صولو)
[تُفتح الستارة. المخرج صولو يدخل متثاقلاً وسط بقعة ضوء حتى يصل إلى مقدمة المسرح.]

المخرج صولو: (يتصفح الجمهور ويخاطبه دون أن يحييِّه،) تجدر الإشارة هنا إلى أن هذا النص حمَّال أوجه، وهذا أمر لا يعيبه، وهو قابل للتأويل والتفسير بلا تابوهات، ويمكن أن يذهب فيه القارئ/القارئة كل مذهب. كما أن الرموز فيه كثيفة نوعاً وكثيرة عدداً ومشرَعة نوافذها للريح من الجهات الأربع، ويختلط فيه النص الدخيل "حكاية موت عقلة السهيان" لكاتب أردني مجهول بالنص الأصيل "قصة موت معلن" للكاتب الكولومبي الشهير ماركيز.

المخرج صولو: (يتابع) أما الشخوص الكولومبيون في القرية الكولومبية فيمكن أن يكونوا شخوصاً أردنيين من أي قرية أو مخيم أو مضرب من مضارب الأردن أو من شتى المنابت والأصول في الحوض الديموغرافي الأردني. (لغَط وأصوات استهجان بين الجمهور) كيف؟ ماذا؟، شو هالحكي، فهِّمنا يا صولو...
المخرج صولو: (يعطي إشارة تهدئة بيده اليمنى) مهلاً، مهلاً يا إخواني وأخواتي.. سأشرحها لكم:

قصة موت معلن الماركيزية التي تسرد وقائع جريمة "شرف" عادية معروفة لجميع أهالي القرية قبل حدوثها، لكن دون أن يمنع وقوعها أحد، ربما تكون قصة موت فرد أو جماعة، أو زوال كيان أو ضياع وطن أو فقدان هوية أو فناء شعب أو اندثار أمة حضارياً، معلومة للجميع ومتوقعة من الجميع، لكن بدون أن يمنع وقوعها أحد.

(المخرج صولو: (يتابع تفسيراته وتأويلاته الخنفشارية) سنتياغو الكولومبي يمكن أن يكون عقلة السهيان أو خلَف أو حمدان الأردني) وربما يكون ضحية أو مجرماً، بطلاً أو بيدقاً، مقداماً أو رعديداً، متبصراً أو سطحياً، حكيماً أو متهوراً، يعرف كل شيء ولا يبالي به أو لا يعرف شيئاً مما يدور حوله، روحاً بوهيمية عاشقة للحياة أو ناسكاً محبطاً يتوق إلى الموت. وربما يمثل شخصاً عادياً أو جندياً مجهولاً أو معلوماً، أو بلداً أو وطناً أو شعباً أو قضية أو رمزاً أو أي شخص أو شيء يخطر لكم أو لا يخطر. ويمكن أن يجسِّد الشهداء "الحاف"- يعني مثل الجنود الحاف- في مخيم "الرقبان" الذين ارتقوا على أيدي الوحوش الوهابية المسيَّرة دون أن يأبه بهم أحد، أو ربما التفت إليهم بعضهم بطرف عينه بأثر رجعي لرفع العتب، وجاء كاتب هذا النص الدخيل المجهول متأخراً جداً وبعد تردد طويل وتقليب فكرة صلاحيته للنشر منذ وقوع الجريمة الداعشية المروعة، لا لإنصافهم "بجوز كلام"- فهم في هذا ليسوا بحاجة إلى كلامه- وإنما طلباً لراحة ضمير قلق لا يملك من أدوات التعبير سوى الكلام، حِيلة العاجز.

(المخـرج صولـو: (لا يـزال يتابـع التفسـير) أنجيـلا فيكاريـو يمكـن أن تكـون عروسـاً عاديـة تلطَّـخَ شرفُهـا فباحـتْ بالحقيقـة، أو كذبـتْ واتَّهمـت سـنتياغو المسـكين للتغطيـة عـلى الفاعـل الحقيقـي الـذي ربمـا تكـون قـد أحبَّتـه بجنـون إلى حـد إزهـاق روح بريئـة في سـبيل حمايتـه، أو انتهـك عرضَهـا غاصـب جبـار ارتعـدت فرائصهـا مـن انتقامـه، أو اغتُصبـت سـفاحاً واختـارت أهـون الشرّيْـن، أوربمـا كانـت ضحيـة اغتصـاب جماعـي وخشـيت أن يضيـع شرفهـا وشرف عائلتهـا بـين القبائـل، ويمكـن أن تكـون القـدس مـا غيرهـا "عـروس عروبتكـم التـي أدخلتـم عليهـا كل زنـاة الأرض وتنافختـم شرفـاً" عـلى حـد تعبـير مظفـر النـواب.

المخـرج صولـو: (يسـتمر في التأويـل) بيـاردو سـان رومـان، القـادم مـن خـارج القريـة الكولومبيـة، ذو الخـصر النحيـل والعينـين الذهبيتـين، الـثري الـذي اشـترى بيـت أرسـتقراطي عريـق جـارَ عليـه الزمـان، فـمات حـسرةً عـلى بيـع إرثـه وتاريخـه، يمكـن أن يكون مسـتثمراً "نوفوريش" متكرشـاً ومنتفـخ الأوداج ومصبـوغ الشـعر أو حليـق الصلعـة، أو أفَّاقـاً صائـد مكافـآت يـرى في مصائـب الأردنيـين عنـده فوائـدَ، أو غاسـل أمـوال اختلسـها مـن قـوت شـعبه وتزنَّـر بهـا وجـالَ عـلى الأمصـار، فوجـد ضالتـه هنـا في أرض مشـاع ومسـتباحة، أو عميـلاً أو جاسوسـاً خـان شـعبه وبـاع وطنـه للعـدو، أو إرهابيـاً وتاجـر أسـلحة أضحـى أمـير حـرب مفـاوض بـين عشـية وضحاهـا، أو فـوق هـذا وذاك بعـيراً يجلـس عـلى برميـل نفـط أو غـاز، في يمنـاه سـيف اللـه المسـلول وفي يـسراه رزمـة "البانكنـوت" الأخـضر، يدمـر دولاً ويطـوِّع أخـرى، يشـتري منظـمات

دوليـة وأحزابـاً سياسـية و"أن جـي أوز" وضمائـر وميديـا ومثقفـين، يصنـع الأقـدار ويـوزع الأرزاق ويبيـع "قواشـين" الجنـة والنـار كيفـما شـاء هـو، "لا كـما شـاءت الأقـدارُ".

المخـرج صولـو: (يواصـل الـشرح) كلوثيلـدي أرمنتـا، صاحبـة دكان الحليـب الـذي ينتظـر فيـه الشـقيقان فيكاريـو لقتـل سـنتياغو، يمكـن أن تكـون فضـة أو شمسـة، امـرأة فلاحـة أو بدويـة تبيـع حليـب عنزاتهـا، أو امـرأة عاديـة تشـاهد وتراقـب مـا يحـدث أمـام عينيهـا ومـن موقعهـا، أو امـرأة بصـيرة ذات خـبرة في معـادن الرجـال وقـدرة عـلى النفـاذ إلى أعماقهـم، أو زرقـاء يمامـة يعـزُّ عليهـا وطنهـا، تـرى شـجراً يمـشي وتحـذِّر القـوم، لكنهـم لا يفقهـون ولا يكترثـون.

المخـرج صولـو: (يواصـل التأويـل) الأب أمـادور، كاهـن القريـة الـذي يعلـم بخطـة القتـل ولكنـه ينـسى تحذيـر سـنتياغو منهـا لأنـه منشـغل بترتيبـات اسـتقبال المطـران الـذي يمـر بمحـاذاة القريـة دون أن يكلِّـف نفسـه عنـاء التوقـف لإلقـاء التحيـة عـلى أهـالي القريـة المصطفِّـين منـذ بـزوغ الفجـر عـلى رصيـف الميناء وهـم يحملـون ديوكهـم المهـداة إلى مائدتـه، يمكـن أن يكـون رجـل ديـن عاديـاً نـسيَ في غمـرة انشـغاله في اسـتقبال رئيسـه أن يهتـم بشـؤون أحـد أفـراد رعيتـه أو مأموميـه، أو أمـيراً داعشـياً محليـاً ذهـب عـلى عجـل لتلقـي حصتـه مـن المـال والسـلاح وفتـاوى التكفـير، أو مسـؤولاً صغـيراً أو كبـيراً أو قائـداً أعـلى أو زعيـماً أوحـد لا يتـورع عـن سـفك دم مواطنيـه

في سـبيل كسـب رضى المايسـترو وبركاتـه، والبقـاء في الكـرسي بـأي شـكل أو وضعيـة، جالسـاً كان أم واقفـاً أم مُقعيـاً أم منبطحـاً عـلى بطنـه أو قفـاه.

المخـرج صولـو: (يدخـل في عمـق الروايـة) أمـا الباحـث- في روايـة ماركيـز- يـا سـادة يـا كـرام، الـذي قـام بزيـارة أنجيـلا فيكاريـو بعـد مـرور زمـن طويـل بهـدف الحصـول منهـا عـلى جـواب صـادق ومؤكـد عـن السـؤال اللغـز: مَـن الـذي فـضَّ بكارتهـا؟ فإنـه يمكـن أن يكـون باحثـاً أنثروبولوجيـاً أجنبيـاً سـيقوم، بعـد خمسـين.. سـبعين.. تسـعين عامـاً، بزيـارة بحثيـة "للسـكان الأصليـين الأردنيـين" لدراسـة أوضاعهـم عـن كثـب ومعرفـة مآلاتهـم: هـل مـا زالـوا عـلى قيـد الوجـود أم انقرضـوا؟ أيـن يعيشـون؟ هـل وُضعـوا في محميـات طبيعيـة، أم اندمجـوا في مجتمع/مجتمعـات المهاجريـن في بـلاد الفـرص الجديـدة؟ أم انصهـروا في الحـوض الديمغـرافي الكبـير المفتـوح لشـتى المنابـت والأصـول؟ هـل حافظـوا عـلى تراثهـم الشـعبي وهويتهـم، أم فقدوهـما؟ أمـا زالـوا يحفظـون أغـاني الحصـاد والبيـادر والأعـراس والحنـاء والطهـور ويحافظـون عـلى طقوسـها- الهجينـي والدحِّيـة والجوفيـة والمـوَّال والعتابـا- أم أنهـا بـادت وسـادت محلهـا "ثقافـة" هجينـة لا تنتمـي إلى شـعب أو وطـن أو "لا ثقافـة"؟ هـل بقـي لهـم متَّسـع في صحـن سـلطة، قطعـة بنـدورة أو خيـار أو حتـى بصلـة يمكـن تمييزهـا، أم أنهـم ذابـوا وانصهـروا في طنجـرة شـوربة يسـتحيل فيهـا التعـرف عليهـم، ولا حتـى تمييـز طعمهـم أو لونهـم أو رائحتهـم فيهـا؟

المخـرج صولـو: (يختتـم المشـهد مخاطبـاً الجمهـور مبـاشرةً) جمهـوري الكريم، أود أن أخبركـم بأننـي قابلـتُ بالأمـس باحثـاً أنثروبولوجيـاً أجنبيـاً كان قـد قـام بزيـارة بحثيـة إلى الحـوض الديموغـرافي هـذا، وأخـبرني بأنـه عـثَر عـلى "كنـز" أنثروبولوجـي لبعـض السـكان الأصليـين، قابَـل منهـم شـاباً اسـمه عقلـة السـهيان الحفيـد، وسـأله عـمَّ إذا كان يحفـظ شـيئاً مـن الأغـاني الشـعبية التقليديـة لأجـداده، فأطـرق الحفيـد برأسـه طويـلاً قبـل أن يـردَّ بالقـول إنـه يتذكـر أن جدتـه عيشـة رحمهـا اللـه كانـت تغنِّـي لـه ولإخوتـه مثـل تلـك الأغـاني قبـل النـوم، يتذكـر منهـا صـدر بيـت: "سـبَّل عيونـه ومَـد إيـده يحنُّونـه"، ولكنـه لا يتذكـر عجـز البيـت، وقـال صراحـةً إنـه لا يعـرف معنـى "سـبَّل عيونـه".

الـراوي الـذي طـرده المخـرج : (يعـود ويخاطبـه) لمـاذا اعطيـت لنفسـك الحـق في احتـلال كل هـذه المسـاحة مـن الـكلام وحرمتنـي منهـا؟

المخـرج صولـو: (يمسـك عـن الـكلام. يسـود صمـت مُطبـق في الصالـة، وتُطفـأ بقعـة الضـوء. ينسـلُّ عـلى رؤوس أصابـع قدميـه إلى الكواليـس خوفـاً مـن أن يلحظـه الجمهـور ويُمطـره بالشـتائم.)

[ستارة..إضاءة..ذهول..خروج]

المطربة والرقيب: مَشاهد

شـخوص المسرحيـة: الـراوي الأول، الـراوي الثـاني، الـراوي الثالـث، الـراوي الرابـع، شـقيق الرقيـب عـواد، المطربـة ريحانـة، الرائـد مـراد، الجنـدي عدنـان أبـو شـبرية، مثقـف 1، مثقـف 2، مرشـد سـياحي. مثقـف ثـوري، مثقـف ثـوري آخـر، مثقـف ثـوري ثالـث، طاقـم إعلامـي كبـير مرافـق للمطربـة، وآخـرون عنـد الحاجـة.

[المـكان والزمـان متغيِّران. خشـبة المـسرح بسـيطة يمكـن تكييفهـا وفقـاً لتغـير المـكان والزمـان وبحسـب المَشـاهد. ولـذا يمكـن أداء المسرحيـة عـلى الخشـبة باسـتخدام ديكـورات متحركـة. وإن تعـذَّر ذلـك، يمكـن قراءتهـا عـلى صفحـات ورقيـة أو شاشـات إلكترونيـة.]

المشهد الأول: محمية الموجب

[الخلفية صورة كبيرة لمحمية، ورقية أو على شاشة، وخيمة عزاء]

الـراوي الأول: (يسـتعرض الجمهـور) سـيداتي آنسـاتي سـادتي، دعـوني أروي لكـم قصـة الرقيـب عـواد مـن قريـة حـيران تنزَّلـت عليـه شـآبيب رحمـة اللـه، الـذي خـرج عـلى قدميـه ولم يعـد، آسـف هـو عـاد، لكـنْ عـلى نقَّالـة في كفـن مـن القـماش الأبيـض الخـام، ولونـه في الحقيقـة "أوف وايـت" وملمسـه خشـن لأنـه أرخـص مـن القـماش الأبيـض الناصـع الناعـم ماركـة زهـر الرمـان...

ذات صباح من صباحات صيف عام 2014 خطرَ ببال الرقيب عواد أن يذهب سيراً على الأقدام برفقة شقيقه إلى محمية الموجب. وعلى الرغم من وعورة تضاريسها، فقد أغرتْه المحمية بالمشي لاستكشاف أسرارها حتى تاهَ في مجاهلها ونسي أسباب رحلته تلك ودوافعها وهدفها الأصلي. في بيت العزاء قصَّ شقيقه للمعزِّين من الأقارب وأهل القرية ما حدث لعواد، فقال إنه انتحى جانباً لقضاء حاجته وراء أكمة، ولكنه أطال المكوث، ولمَّا كان وراء الأكمة ما وراءها فقد لعب الفار في عُبِّه، وراح يناديه بأعلى صوته ويبحث عنه في كل الاتجاهات دون جدوى.
(صمت يخيِّم على المكان والوجوه)

شقيق عواد: (يقف على طوله مقاطعاً) أنا هنا أيها الراوي، وكنتُ هناك معه، شاهد عيان. لقد سمعت أنَّاته واستغاثاته، فاقتفيتُ مصدر الصوت إلى أن وصلتُ إليه، فوجدته ملقى على الأرض وبجانبة أفعى رقطاء سامَّة مهروسة الرأس بدا أنها لدغته في رجله، وأنه تمكَّن من قتلها بحجر كبير. أُشهد الله يا إخوان أنني حاولتُ إنقاذ حياته، "شرَقْتُ" السم من مكان اللدغة، وحاولتُ الاتصال بالإسعاف بواسطة التلفون"الخلاوي" دون جدوى لأن المحمية كانت خارج التغطية، مما اضطرني إلى ترك أخي في الموقع والسير على قدميَّ إلى أن وصلت إلى الطريق العام بعد أزيد من ساعة، واتصلتُ ببعض أهلنا وأقاربنا، الذين "فزعوا" لنجدتنا واتصلوا بدورهم بالسلطات طالبين إرسال طائرة مروحية لحراجة حالة الرقيب ولكونه لا يزال على رأس عمله في سلك العسكرية. مرَّت ساعات

ولم يستجب أحد إلى نداء الاستغاثة، وتفاقمت حالة عواد واشتدت آلامه وتفشى السم في شرايينه، وأخذ يتلوى ألماً ويتوسل المساعدة إلى أن غاب عن الوعي. وبعد طول انتظار ويأس شديد أحضر أقاربُنا حماراً لنقله من داخل المحمية إلى الطريق العام، ثم في سيارة الدفاع المدني إلى أقرب مستشفى، ولكن روحه صعدت إلى بارئها قبل الوصول إلى المستشفى.

الراوي الثاني: (مخاطباً الجمهور) يا جماعة الخير خذوها مني عن مصدر موثوق: الرقيب عواد ذهب إلى محمية الموجب كي يفكر في إيجاد حل لمشكلته العويصة كمعيل لخمسة أطفال وزوجة وأبوين مسنّيْن، أكل وشرب وتعليم وطبابة ومواصلات وقسط الإسكان العسكري لبيته المكون من ثلاث غرف ومنافعها الذي بناه لعائلته في القرية. "واللي بسطحه أكثر شي" موبايلات الأولاد وبطاقات الشحن التي ليس لها نهاية. ويا حفيظي السلامة، كان الوقت غُرَّة رمضان والناس صيام، وأراد لعائلته أن تفطر على زفر، شأنها شأن بقية خلق الله من الصائمين، فيمَّم وجهه صوب المحمية كي يصطاد بعض الأرانب البرية أو ما تجود به الصدفة من طيور، على الرغم من أن الصيد فيها محظور، فاصطادته أفعى وحدث ما حدث.

الراوي الثالث: (يتدخل واقفاً ليدحض الروايتين السابقتين) يا رُواة الخير، تذهبون شرقاً وغرباً في تأويلاتكم النمطية بهدف استجداء التعاطف معه وإثارة الشفقة عليه، فتقولون إنه فقير الحال وعنده كوم لحم، والمعاش

بالـكاد يطعمهـم خبـز مدعـوم. الحقيقـة ليسـت كذلـك، فالرقيـب عـواد متقاعـد وليـس تحـت السـلاح، ويتقـاضى راتبـيْن، راتـب التقاعـد العسـكري وراتـب لقـاء عملـه حارسـاً أمنيـاً في أحـد مـولات عـمان، ولكنـه طـمَّاع وعينـه فارغـة. وهـو فـوق ذلـك ليـس مـن دافعـي الضرائـب كصاحـب المـول الـذي أيَّـد الاحتجاجـات ضـد قانـون ضريبـة الدخـل مـن تحـت لتحـت، بينـما لم يتزحـزح عـواد مـن موقعـه في الحراسـة خوفـاً مـن فقـدان عملـه أو حتـى مـن حسـم أجـر يـوم عمـل واحـد مـن راتبـه.

المشهد الثاني: المدينة الوردية

[مدينـة البـترا الأردنيـة النبطيـة. أسـفل الخزنـة. يمكـن اسـتخدام صـورة كبـيرة للمدينـة عـلى شاشـة في خلفيـة المـسرح.]

المرشـد السـياحي: أنـا لسـت راويـاً أنقـل عـن فـلان عـن عـلان، فأنـا لا أحـب العنعنـة أصـلاً، بـل أفضـل العيانيـة، ولسـت مجـرد مرشـد سـياحي بقرشـين وحافـظ كلمتـين، بـل خبـير في تاريـخ الآثـار وخاصـة النبطيـة. وأنـا شـاهد عيـان عـلى زيـارة المطربـة ريحانـة التاريخيـة لمدينـة البـترا التاريخيـة، أي أننـا هنـا أمـام رمزيْـن تاريخيـين مميزيـن: المدينـة الورديـة والفنانـة العصريـة. وقد حظيـتُ بالتقـاط صـورة سـيلفي نـادرة معهـا عـلى سـلم الطائـرة المروحيـة العسـكرية التـي أقلَّتهـا مـن العاصمـة إلى هنـا عـلى نفقـة الدولـة العليَّـة...

المطربة ريحانة: (تتدخل بقوة وتدعو وسائل الإعلام المرافقة لها إلى مؤتمر صحفي فوري، تضع إحدى وصيفاتها على رأسها منديلاً نبطياً مرصَّعاً بالذهب والماس الذي نُحتت به المدينة الوردية في الصخر) وقِّف عندك يا هلفوت. هذا محض افتراء، فأنا فنانة غنية من دار أبوي ولله الحمد ولست بحاجة إلى ملاليمكم يا شحادين، وقد دفعت أجرة المروحية عداً ونقداً من حرّ مالي وعصارة حنجرتي الماسيَّة التي أمَّنتُ عليها بملايين الدولارات..

المرشد السياحي: أستغفر الله يا ست (يستدرك، يحوقل ويبسمل ويرتِّل الآية الكريمة على عجل بصوت عالٍ متهدج) "يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبيَّنوا.."، نعم أنا أشهد، والله خير الشاهدين، على أن فنانتنا الجميلة، على العكس مما يزعم المرجفون والفاسقون وأصحاب الأجندات الأجنبية من ديدان الأرض والذباب الإلكتروني، ممن يريدون تلطيخ صورتها وتشويه جمالها الأخَّاذ، آية من آيات الجمال وأنها تفكُّ عن حبل المشنقة. وقد سمعتُ للتو تهامساً بين الموجودين من بعض الحُسَّاد، ولا سيما الحاسدات، من يقول إنها سمينة. سمينة؟ هذا باطل، اتقوا الله يا شيخ، هي "ملزلزة"، نعم (يهمس للجمهور كي لا تسمعه الفنانة) ومحسوبكم، بصراحة، يعشق النساء "الملزلزات". إن كل ما قيل بحقها ليس اكثر مما قيل في المثل الشعبي "ما لقوش في الورد عيب، قالوله يا احمر الخدَّين".

شـخص مـن الجمهـور في الصالـة: (مقاطعـاً) ذكَّرتْنـي عبارتـك أيهـا المرشـد الظريـف بأيـام الدراسـة في الاتحـاد السـوفييتي عندمـا كان يـاسر عرفـات يلتقـي الطلبـة العـرب والأجانـب في جامعـة باتريـس لومومبـا للصداقـة بـين الشـعوب. كان "أبـو عـمار" كلـما "انزنـق" في مناقشـة الأسـئلة والقضايـا التـي يتهـرب مـن الإجابـة عنهـا- مـن قبيـل: مـا هـي مصـادر تمويـل منظمـة التحريـر الفلسـطينية؟ ومقابـل مـاذا تغـدق دول الخليـج كل تلـك الملياـرات المغمَّسـة بالنفـط عليهـا؟ - يـردد هـذه العبـارة ويقـول للمترجـم باللهجـة المصريـة: "ترجـم ترجـم" وينهـض مغـادراً القاعـة، مصحوبـاً بتصفيـق الموالـين وذهـول المعارضـين.

مثقـف 1: (يصعـد مـن الصالـة إلى خشـبة المـسرح ويتحـدث وهـو يعـض عـلى غليونـه بناجـذه الأيـسر، فتخـرج الكلـمات من بين شـفتيه مـع دخـان الغليون) إننـي أسـمع كلام مضافـات وقيـل وقـال لا علاقـة لـه بجوهـر الموضـوع. جوهـر الموضـوع يـا أسـاتزة (يقـول الكلمـة الأخـير باسـتهزاء) يتمثـل في أن هـذه المطربـة العظيمـة تسـتحق مـن الحفـاوة والتكريـم أكـثر مـما قوبلـت بـه- أي مجـرد نقلهـا عـلى مـتن طائـرة مروحيـة عسـكرية وفتـح خزنـة البـترا لهـا- انظـروا إلى ملامحهـا ودقِّقـوا في قسَـمات وجههـا النبطيـة، سـترون أنهـا تشـبه الملكـة "شـقيلة" زوجـة الحـارث الرابـع ملـك المدينـة الورديـة المنحوتـة في الصخـر التـي تزورهـا فنانتنـا اليـوم، فمدينـة البـترا إذن مدينتهـا، ومدفـن الحـارث الرابـع خزنتهـا، فعـلامَ هـذه الضجـة الكـبرى علامـا؟
(تملمُل بين صفوف الجمهور، وأصوات استهجان واستنكار تعلو)

مثقف 2: (ينبري لنجدة زميله من الصالة، محاولاً تهدئة الجمهور الممتعض بإشارة من كلتا يديه) لا تستغربوا يا أعزائي وعزيزاتي، أنا أعلم منكم بدهر، وأؤكد لكم أن هذا الأمر شائع تاريخياً في علاقة الفنانين والكتاب والمفكرين بالحكام والحكومات، وأن الدول التي تريد أن تحجز لها موقعا مرموقاً على خريطة العالم وفي سجل الحضارات، تدفع أموالاً طائلة من أجل إقناع المشاهير بزيارتها، وتُرتِّب لهم برامج خاصة لزيارة معالمها الحضارية والثقافية والسياحية، على أمل أن تحظى منهم بلقطة قصيرة أو تعليق موجز. فبأي عصر تعيشون؟ هذا يسمى "توظيف" المشاهير في العمل الوطني والمراحل الحاسمة في حياة الشعوب (يسرد بعض الأمثلة):

المشهد الثالث: أم كلثوم وعبد الناصر

[من زاوية مظلمة من خشبة المسرح يدخل المثقف العضوي 2 ترافقه بقعة ضوء إلى أن يصل إلى مقدمة المسرح بمواجهة الجمهور]

المثقف 2: (يخاطب الجمهور) دعوني أُذكِّركم بأن الاحتفاء بالمشاهير من الفنانين والمفكرين وسواهم من المبدعين ليس من الأحداث النادرة في التاريخ، وأن فنانين ومفكرين عظاماً نالوا أعلى درجات التكريم والاهتمام من قبل زعماء عظام. هل بينكم من يتذكر تلك الأيام العصيبة التي تلت هزيمة حزيران 1967 المُرة، عندما أعلن الزعيم عبد الناصر في خطاب التنحي الشهير الذي ألقاه غداة الهزيمة تنحيِّه عن منصبه، فخرجت مصر "البهيَّة" عن بكرة أبيها لتقول لا للتنحي، وغنَّت له سيدة

الغناء العربي أم كلثوم التي منحها عبد الناصر لقب سيدة مصر الأولى وسطتْ عليه جيهان السادات بعد وفاته قصيدة صالح جودت "إبقَ فأنت الأمل" ؟

المخرج: هل بينكم في هذه الصالة فتاة تستطيع أن تغنيها؟ إذا تعذّر ذلك يمكن بث تسجيل سمعي أو بصري للأغنية.

(تصعد إحدى الفتيات من بين الجمهور إلى المسرح. تقف في وسطه قابضةً على منديل أبيض في تقليد لأم كلثوم. موسيقى رياض السنباطي المسجَّلة تصدح. الفتاة تشرع بالغناء):

"قُمْ واسمعها من أعماقي
فأنا الشعب
إبقَ فانت السد الواقي لمنى الشعب
ابق فأنت الأمل الباقي لغد الشعب.
قم إنا جففنا الدمع وتبسَّمنا
قم إنا أرهفنا السمع وتعلمنا
قم إنا وحدنا الجمع وتقدمنا
قم للشعب وبدد يأسه
واذكر غده واطرح أمسه
قم وادفعنا بعد النكسة
وارفع هامة هذا الشعب."

(تنتهي أغنية أم كلثوم وتنتقل بقعة الضوء إلى المثقف 1)
المثقف 1: على ذكر أم كلثوم وعبد الناصر، سأزيدكم من الشعر بيتاً: عندما قرر عبد الناصر خوض حرب استنزاف ضد إسرائيل تحت شعار إزالة آثار العدوان، بادرت سيدة مصر الأولى إلى الإسهام بفنِّها في ما سُمي حينئذ بالمجهود الحربي من خلال القيام بجولة غنائية عالمية وعربية، حيث خصصت ريع حفلاتها بأكمله للمعركة القادمة ضد إسرائيل. وقد استهلَّت جولتها الأوروبية بحفل باريس الذي أُقيم على مسرح أولمبيا في نوفمبر/تشرين الثاني 1967 وحضرَه الرئيس شارل ديغول، الذي أرسل لها لدى مغادرتها بلاده برقية قال فيها:
(يُسمع تسجيل صوتي لبرقيته) "لقد لمستِ بصوتك سيدتي شغاف قلبي وقلوب الفرنسيين جميعاً."

المثقف 2: أترون مستوى التكريم والمكرِّم والمكرَّم يا رعاكم الله؟ وبمناسبة الحديث عن الرئيس ديغول واهتمامه بالفنانين والمفكرين، دعوني أُشير إلى موقف آخر جميل في هذا السياق: تعلمون أن الفيلسوف الوجودي جان بول سارتر ورفيقته حتى الموت سيمون دي بوفوار كانا يُعتبران من أبرز أيقونات انتفاضة الطلبة والعمال التي اجتاحت فرنسا في مايو/أيار 1968 والتي ولدت ما سُمي باليسار الجديد. وفي محاولة للبحث عن سبيل لوقفها، قدَّم له أحد مستشاريه نصيحة باعتقال "المحرِّض" الأكبر على الانتفاضة، وهو جان بول سارتر، فجاء رد ديغول رمزياً وبمستوى سارتر: "إن فرنسا لا تعتقل فولتير". هل فهمتم الآن؟

ذوَّاقة من أيام الزمن الجميل بين الجمهور: (يقف بتثاقل ملوِّحاً بنظارته "كعب الفنجان") الله الله على الزمن الجميل، زمن العظماء! فين أيامك يا ريِّس، فين أيامك يا ست!

ذوَّاقة آخر: (يقف باكياً) أيام لا تُنسى يا زميل. أتذكَّرُ يوم رحيل الزعيم في 28 سبتمبر 1970 عندما سجَّلت أم كلثوم أغنية/ قصيدة نزار قباني المغرقة في الحزن "رسالة إلى الزعيم"، بلحن السنباطي ومنعَ بثَّها أنور السادات. وقد روى لي شخصياً مدير استوديو التسجيل في الإذاعة المصرية أن "الست" كانت توقف التسجيل وتجهش بالبكاء بين كل مقطع وآخر. اسمعوا الجمال الحزين!

(تصعد سيدة من الصالة إلى المسرح وتؤدي مقاطع من الأغنية، أو يتم بث تسجيل للأغنية بصوت أم كلثوم):

"زعيمنا، حبيبنا، قائدنا،
عندي خطابٌ عاجلٌ إليكْ،
من أرض مصر الطيبة،
من الملايينِ التي تيَّمها هواكْ،
من الملايين التى تريدُ أن تراكْ..
عندي خطابٌ عاجلٌ إليكْ،
لكنني لا أجد الكلام
الصبر لا صبر له
والنوم لا ينام.

الحزن مرسوم على الغيوم .. والأشجارِ والستائرِ
وأنت سافرت ولم تسافرِ
فأنت في رائحة الأرض .. وفي تفتُّح الأزاهرِ
في صوت كل موجة، وصوت كل طائر
في صدر كل مؤمن، وسيف كل ثائرِ..
.....
يا أيها المعلم الكبير .. كم حزننا كبير
كم جرحنا كبير
لكننا نقسم بالله العلي القدير
أن نحبس الدموع في الأحداق
ونخنق العبرة..
أن نحفظ الميثاق ونحفظ الثورة.
.....
وعندما يسألُنا أولادنا:
في أي عصرٍ عشتمُ؟
في عصرِ أي مُلهَمِ؟
في عصرِ أي ساحرِ؟
نجيبُهم: في عصرِ عبدِ الناصرِ..
في عصر عبد الناصرِ."

المشهد الرابع: صحراء الجفر

[صورة على شاشة كبيرة لمعتقل الجفر الصحراوي، الذي سُجن فيه مئات المعارضين السياسيين في الخمسينيات والستينيات من القرن المنصرم في أوضاع اعتقال رهيبة.]

الراوي الرابع: (يتدخل متأخراً، لكن منفعلاً) دعوني أُذكّركم بما حدث للرائد مراد السويطي الذي ارتقى مع ثلة من رفاقه العسكريين في المذبحة الإرهابية التي اقترفها دواعش معروفون في مدينتيْ الفحيص والسلط، بعد أن قاد بنفسه عملية اقتحام مبنى مفخَّخ. فقد نُقل الرائد مراد في عربة نقل الموتى إلى بلدته الجفر على بُعد نحو مئتي كيلو متر عبر الصحراء في عز قيظ الصيف، بدلاً من زفافه مكرَّماً ومطوَّقاً بأكاليل الغار على متن مروحية عسكرية أفخم من المروحية التي أقلَّت المطربة ريحانة، تُحلِّق به بين صقور صحراء الجفر الحرة وتطوف فوق أطلال معتقل الجفر السيء الصيت كي يتأكد قبل إيداعه مثواه الأخير من أن مركز الاعتقال الرهيب الذي كان السجين الشيوعي الدكتور يعقوب زيادين يعالِج فيه آباءَه وأجدادَه من القبيلة ويُجري لهم عمليات صغرى بسكين مطبخ السجن في أواسط القرن الماضي، قد أُزيل عن وجه الأرض إلى الأبد، وكي يطمئن على أن "مقشاة" البندورة والخيار والكوسا التي زرعها المعتقلون، ودوالي العنب وأشجار الخوخ والرمان التي غرسوها في أرضه اليباب لا تزال تؤتي ثمارها يانعةً ومزدهرة، وأن الفقاسة السحرية التي صنعوها وكانت، سبحان من هو على كل شيء قدير، تُخرج الحي

مـن الميـت- كـما اعتقـدَ حـراس السـجن- أي تُخـرج الصـوص مـن البيضـة مـن دون أن "تقعـد" عليهـا دجاجـة، لا تـزال تعمـل، والعُـود الرنَّـان الـذي صنعـه الشـيخ داوود مـن خشـب صناديـق الشـاي المسـتعملة وخيطـان النايلـون لا يـزال محفوظـاً في مـكان يليـق بـه وصالحـاً لعـزف الأناشـيد الوطنيـة عـلى أوتـاره.

المشهد الخامس: لندن أُمَّتان

[شاشـة كبـيرة يظهـر فيهـا فلاديمـير لينـين وزوجتـه كروبسـكايا وهـما يجـولان العاصمـة لنـدن، وخلفهـما صـورة مقسـمة إلى قسـمين، إلى يمينهـما حـي ويسـت مينيسـتر، وإلى يسـارهما عشـوائيات العـمال. مثقـف ثـوري يضـع "لاب تـوب" عـلى طاولـة جانبيـة لتقديـم عـرض "داتـا شـو" عـلى الشاشـة، مسـتخدماً كشـافاً ضوئيـاً].

المثقـف الثـوري: عـلى رسْـلكم يـا قـوم، إنْ هـذه إلا مقارنـات ضيـزى، لنعُـدْ إلى جوهـر السـياق، وهـو صراع الأضـداد الـذي لا يتوقـف بالريمـوت كونـترول، والتناقضـات الصارخـة التـي لا تُحـل بتبويـس اللحـى، وحفـرة الانهـدام الكبـير التـي لا يمكـن ردمهـا بقبضـة اليـد. وبوسـعي هنـا أن أدلـو بدلـوي وأغـرف بـه لحضراتكم/حضراتكـنَّ مشـهداً تاريخيـاً ذا صلـة بصُلـب موضوعنـا:

المثقـف الثـوري: (يقـدم للعـرض) تخبرنـا زوجـة لينـين ورفيقتـه ناديجـدا كروبسـكايا أن فلاديمـير إليتـش أوليانـوف (لينـين)، أثنـاء إقامتـه في لنـدن في

مطلع القرن العشرين درسَ الحياة هناك، حيث كان يهوى الذهاب في جولات طويلة على أسطح حافلات الركاب، وأحبَّ ازدحام السير في تلك المدينة التجارية الضخمة، وفي الميادين الهادئة بمنازلها الأنيقة المحاطة بالمساحات الخضراء، حيث لا تسير سوى عربات الخيل الأنيقة. بالمقابل كان يمعن النظر إلى الشوارع الضيقة الحقيرة المكتظة بحبال الغسيل والأطفال المصابين بالأنيميا وهم يلعبون على عتبات البيوت التي تستأجرها الطبقة العاملة من مالكي العقارات في لندن. وتقول كروبسكايا إنهما كانا يذهبان إلى تلك الأماكن سيراً على الأقدام، وكلما شاهد إليتش تلك التناقضات المخيفة والهوة السحيقة بين الأثرياء والفقراء، كان يصكُّ أسنانه وينطق بالإنجليزية كلمتين: Two Nations "أمتان"، ومنها ربما استشرف حتمية قيام الثورة الاشتراكية وإمكانية تحقيقها في بلد واحد، وفي بلده تحديداً.

(المثقف الثوري يضغط زر الكشاف الضوئي ويبدأ عرض الشرائح (السلايدات):

سلايد 1: هنا ينام الفقراء في توابيت الموتى مقابل أربعة بنسات؛

سلايد 2: هنا ينامون في الملاجئ وبطونهم على الحبال. هل رأيتم أو سمعتم عن "هكذا نومه"؟

سلايد 3: في هذا المكان يتقاسمون ساعات النوم، بعضهم نيام وبعضهم الآخر جلوس؛

سلايد 4: في هذا الحي يشرب السكان ماءً مختلطاً بمياه الصرف الصحي؛

سلايد 5: في هذه الصورة ترون أطفالاً في السابعة من العمر يعملون 14

ساعة يومياً في تنظيف مداخن الأغنياء وفي مناجم الفحم؛
سلايد 6: وفي هذه الصورة فتيات قاصرات يعملن في الدعارة لتأمين لُقمتهن ودفع أجرة السكن في العشوائية للمالكين؛
سلايد 7: يحمل هذا السلايد صورة الكاتب الشهير جوناثان سويفت ومقال السخرية السوداء الذي نشره بعنوان "اقتراح متواضع"، الذي يقترح فيه حلاً حاسماً لمشكلة الأطفال ولإنهاء معاناتهم، وللحؤول دون أن يشكلوا عبئاً على والديهم وبلادهم، وجعلهم مفيدين للمجتمع. ويتمثل الحل المقترح في قيام الوالدين ببيع أطفالهم الرضَّع ذوي الأجساد الطرية النضرة لتقديمها وجبات شهية ولذيذة، مشوية أو مقلية أو مطبوخة، للسيدات والسادة من الأثرياء، ويمكن سلخ جلودهم الناعمة الجميلة لصناعة أحذية فاخرة للنساء المترفات.
سلايد 8: وأخيراً، انظروا إلى ما سُمي بسياحة الأحياء الفقيرة، التي ابتدعها أثرياء لندن ومترفوها، حيث كانوا يجولون في العشوائيات بحراسة الشرطة كي يتفرجوا على حياة الفقراء، كأنهم في حديقة حيوانات.

شخص من الجمهور: (يصرخ بأعلى صوته) والله يا ناس هؤلاء أرحم من أثريائنا، على الأقل يزورونهم ولو للفرجة، أما جماعتنا فإنهم لا يعرفون مَن هم فقراؤنا وأين وكيف يعيشون.

المشهد السادس: قصة مدينتين

[عرض لقطات على شاشة كبيرة من فيلم "قصة مدينتين. يتشجع مثقف ثوري آخر ويقف وسط الجمهور].

المثقف الثوري الآخر: أنت يا رفيق تذكّرني برواية تشارلز ديكنز "قصة مدينتين" التي تُصوّر حياة البؤس والشقاء في الأحياء الفقيرة في مدينة باريس، وإرهاصات الثورة الفرنسية. (يتّجه إلى خشبة المسرح لإلقاء افتتاحية رواية ديكنز "قصة مدينتين" بصوت إذاعي):

"كان أفضل الأزمنة، كان أسوأ الأزمنة.. كان عصر الحكمة، كان عصر الحماقة.. كانت حقبة الإيمان.. كانت حقبة الشك، كان موسم النور.. كان موسم الظلام، كان ربيع الأمل، كان شتاء اليأس.."

(يدخل المثقف الثوري الآخر في وصف ديكنز للحادثة التي وقعت في باريس): الماركيز سان إيفرموند يدهس بعربته ابن الفلاح الفقير جاسبار، ثم يلقي إليه قطعة نقدية ثمناً لفلذة كبده. هنا يسارع بائع النبيذ مسيو ديفارج إلى مساعدة الأب جاسبار والتخفيف من مصابه بإقناعه بكلمات اعتبرها الماركيز، تهكماً، وفلسفة: "كُن شجاعاً يا جاسبار، فمن الأفضل أن يموت طفلك بهذه الطريقة من أن يعيش أوقاتاً مثل هذه. فقد مات بسرعة وبدون ألم. وربما عاش ساعة واحدة سعيداً." يلقي الماركيز إلى ديفارج قطعة نقدية أخرى هو الآخر، ويغادر إلى قصره على وجه السرعة، لكن ديفارج يقذفها داخل العربة.

المثقف الثوري الآخر (يتابع سرد القصة مخاطباً الجمهور): هل تعلمون ما فعل جاسبار؟ هل تعتقدون أنه تخلَّى عن قلبه؟ لا، فالأب لا يترك دم ابنه يجفُّ تحت عجلات قاتله، فقد اختبأ أسفل عربة الماركيز وتَبعه إلى قصره. في تلك الليلة، والكلام للجميع، تسلَّل جاسبار إلى غرفة نومه، غرزَ خنجره في صدره، وترك على فراشه ورقة كتب عليها: "انقلوه بسرعة إلى قبره، التوقيع جاك".

مثقف ثوري ثالث: (يدلو بدلوه كذلك) لعلمكم أعزائي/عزيزاتي المدينتان في رواية ديكنز هما باريس ولندن في الفترة نفسها خلال عام 1775. وفي كلتيهما كان السادة المهيمنون على مخازن الدولة الخاصة بالخبز والسمك يعتقدون أن الأوضاع ستظل على حالها الراهن أبدَ الدهر، ذلك لأنهم كانوا يرَوْن الواقع في حالة سكون، لكن هيهات، فالتاريخ لهم بالمرصاد، وهو ميزان العدل وصانعه، وحركته لا تتوقف، وما لبث ذلك الواقع أن تغيَّر باندلاع الثورة البرجوازية التي ستحمل بدورها بذور فنائها.

شخص من الجمهور: (يُبدي إعجابه بالكلام)، يا سلام! والله هذا الرجل متكلم، ويعجبني كلامه، مع أنني لا أفهم ما هي حركة التاريخ.

الراوي الأول: (بعد مرور فترة طويلة يتدخل بسرعة وحماسة كمن استيقظ من نومه ولمعت في رأسه فكرة) لقد شطحتم كثيراً يا قوم حتى كدنا ننسى قصة الرقيب عواد، محور مسرحيتنا. فقصة الماركيز

إيفرموند والفلاح جاسبار جعلتني أخشى إغراء أن يضطر ابن الرقيب عواد الأردني إلى القيام بما قام به الفلاح جاسبار الفرنسي، فيختبئ تحت بردعة الحمار الذي نقل والده جثةً مسمومة إلى المستشفى، ويتسلل إلى غرفة نوم الماركيز الأردني، يغرز شبريته في صدره ويترك على فراشه رسالة مشابهة موقَّعة باسمه الحقيقي أو المستعار أو بدون توقيع يقول فيها: "ادفنوه بسرعة، فإكرام الميت دفنه". ولكن ما أخشاه أكثر هو أن يخرج الناس جميعاً شاهرين سيوفهم في ثورة للجياع والمهمشين والغاضبين تهدم المعبد الليبرالي على رؤوس "المؤمنين والكافرين" أجمعين.

المشهد السابع: اعتصام الرابع

[مشهد من فيديو تسجيلي على شاشة كبيرة للحراك الشعبي في الليلة الأخيرة لما سُمي بـ "ثورة الطبقة الوسطى" على الدوار الرابع. شاهد عيان، وهو أحد المشاركين في الحراك، يروي ما حدث.]

الشاهد العيان: أنا فلان، تعرفونني، كنت هناك، وشهدتُ الواقعة الشهيرة المتعلقة بالجندي المتقاعد سلمان قريَّات، الذي قطع المسافة من الطفيلة إلى عمان، وتنقَّل من مركبة إلى أخرى من المركبات عابرة السبيل، من تراكتور إلى بك أب، إلى باص كوستر عمومي إلى شاحنة على الطريق الصحراوي حتى وصل إلى الدوار الرابع للمشاركة في الاحتجاج على الأوضاع المعيشية والاقتصادية التي يعاني منها كغيره من الأردنيين. انضمَّ سلمان إلى صفوف المحتجين بصورة سلمية طبيعية، متحمساً للدفاع

عـن لقمـة أطفالـة ومتزنِّـراً بشـبريته التـي لا تفـارق خـصره أينـما ذهـب، لا ليسـتخدمها ضـد أحـد، وإنمـا كممارسـة اجتماعيـة وكزينـة للرجـل (كالجنبيـة اليمنيـة). وشـوهد أحـد رجـال الـدرك وهـو يُمسـك بـه ويحـاول تخليصهـا منه، فأُصيـب الأخـير بجـرح سـطحي في يـده. اعتُقـل سـلمان بتهمـة طعـن الـدركي، وجـرى اسـتغلال تلـك الحادثـة العرَضيـة لشـيطنة المحتجـين وفـض الاحتجـاج. وعندمـا وصـل الخـبر إلى ابنتـه، التـي كانـت تنتظـر عودتـه سـالماً غانمـاً محققـاً أهـداف الحـراك، كتبـت كلامـاً جميـلاً عـن والدهـا أوضحـت فيـه الحقيقـة البسـيطة، وأثبتـت براءتـه مـن تلـك الفِريـة.

أحـد الموالـين: (يحـاول دحـض روايـة الشـاهد العيـان وتشـويه حادثـة وفـاة الرقيـب عـواد معـاً) يـا جماعـة، هـذا كلام عـار مـن الصحـة، لا تسـتمعوا إلى المغرضـين والمرجفـين وذوي الأجنـدات الخارجيـة، خـذوا منـي الصـافي، فمصـادري مطَّلعـة فـوق مـا تتصـورون وموثـوق بهـا، وهـي مزروعـة في قلـب الأحـداث: الرقيـب عـواد، الـذي قـضى نحبـه ملدوغـاً وهو يمـارس هوايـة الصيد المحظـورة بموجـب القانـون في محميـة الموجـب لتسـلية صيامـه هـو نفسـه أبـو شـبرية الطَفيـلي الـذي طعـن الـدركي بسـلاح أبيـض، وأثـار اضطراباً كبـيراً بـين صفـوف المحتجـين وأحـدث انقسـاماً حـاداً بـين أنصـار الحـراك السـلمي الحضـاري الصديـق للبيئـة وبـين جمهـور الغاضبـين الزاحفـين مـن المحافظـات الذيـن رفعـوا سـقف الشـعارات والهتافـات "العاقلـة" حتـى طاولـت المقامـات العليـا، الأمـر الـذي حـدا بجماعـات عديـدة ومتنوعـة الأطيـاف مـن المشـاركين في الاعتصـام ريـاءً سياسـياً انطفـأ، أو مصلحـة خاصـة قُضيـت إلى الانسـحاب

ومغـادرة المـكان وإنهـاء الاعتصـام.

مشهد الختام: الليلة الأخيرة..الليلة الكبيرة

[خشـبة المـسرح مظلمـة وخاليـة تمامـاً إلا مـن شاشـة كبـيرة وطاولـة صغـيرة عليهـا لاب تـوب لعـرض فيلـم فيديـو. لحظـات صمـت وترقُّـب وتشـويق. بقعـة ضـوء تُظهـر المخـرج الحـداثي وترافقـه وهـو يـذرع أرجـاء المـسرح بخيـلاء. يحيِّـي الجمهـور بانحنـاءة طفيفـة وإيمـاءة بيديـه ورأسـة. يقـف المخـرج في وسـط الجـزء الأمامـي مـن الخشـبة]

المخـرج: أعـزائي عزيـزاتي، يـا جمهـوري الحبيـب، لا أريـد أن تعـودوا إلى بيوتكـم بنفـوس مهمومـة وقلـوب منقبضـة. ولـذا، ارتأيـت أن أضيـف إلى هـذه المشـاهد القاتمـة مشـهداً ختامياً بهيجـاً كي أحنفـظ لنفـسي ولكـم بمـذاق حلـو ورائحـة زكيـة وذكـرى ورديـة لتلـك الليلـة الكبـيرة:

في تلـك الليلـة الأخـيرة، الليلـة الكبـيرة، في الـدوار الرابـع، وقبـل أن ينفـضَّ سـامر الاعتصـام الكبـير وتعـود الأمـور إلى سـيرتها الأولى والطيـور إلى أعشاشـها، والطبقـة الوسـطى إلى خيانـة "ثورتهـا" والجماهـير المتمـردة إلى بيـت الطاعـة، وتعمـل الكيانـات الرثـة بأصلهـا، كان المشـهد مهيباً: حشـدٌ ضمَّ مختلـف ألوان الطيـف، كلٌ لـه صوتـه ولونـه ومشرَبـه: هـؤلاء مـن جبـل عـمان وعبـدون ودابـوق، وأولئـك مـن جبـل النظيـف ووادي الحـدادة وسـحاب.. هـؤلاء مـن الكـرك ومعـان والمفـرق وإربـد، وأولئـك مـن الوحـدات والبقعـة والحصـن..

المخـرج: (بنـبرة عاليـة وعـلى طريقـة مقدِّمـي النجـوم) إليكـم الآن مشـهد الختـام "أوبريـت الليلـة الكبـيرة" للأربعـة الكبـار صـلاح جاهـين وسـيد مكاوي وصـلاح السـقا وناجـي شـاكر.

(يشغِّل الفيديو):

"قُبَّة سيدنا الولي دول نوَّروها
ما احلى البيارق والناس بيزوروها
قُبة سيدنا الولي .. بالجو عالية
ما احلى البيارق لما دوَّروها...
الليلة الكبيرة يا عمي والعالم كتيرة
ماليين الشوادر يابا من الريف والبنادر
دول فلاحين ودول صعايدة
دول من الكنال (القنال) ودول رشايدة
دي الليلة الكبيرة يا عمي والعالم كتيرة..."

[ختام، ستارة، إضاءة، ذهول، خروج مرتبك]

نصوص قصصية

أُم البيـــــــــار[1]

(1)

- الدنيـا تـدور في رأسي يـا جماعـة الخـير ومـا أشـبه الليلـة بالبارحـة. علَّـق الحـج فـلاح عـلى حديـث الفلاحـين في المضافـة عـن أمـور دنياهـم. ولـو كان مـن جيـل اليـوم لقالهـا بالبنـط المابعـد حداثـوي إن التاريـخ يكـرر نفسـه ثـلاث مـرات، لكـن الثالثـة في رأسـه المُثقـل بالذكريـات فقـط.

أحـسَّ الحـج فـلاح بـأن حبـلاً كالـصراط يشـدُّ أعصـاب ذاكرتـه كالـكلاَّب إلى ذلـك اليـوم. سرَتْ رعشـة تحـت ثنْيـات جلـده الـذي لم يكـن بوسـعه، رغـم صلابتـه، أن يخفـي كومـة العظـام التـي يكسـوها. شـعر برغبـة في الركـض، الركـض عـلى نفَـس واحـد إلى أن يصـل إلى ذلـك المـكان، إلى ذلـك اليـوم. البرّيـة، الجمعـة، لم يعـد يميـز بينهـما. لقـد احتوتـه البرّيـة كعبـاءة كبـيرة، كفروتـه البقدليـة المهلهلـة التـي ينـدسُّ فيهـا. اشـتدَّ الحبـل واشـتدت الرعشـة فأفلتـت مـن قبضتـه المسـافة بـين الليلـة والبارحـة. ظهـرَ الرجـال واحـداً إثـر آخـر. تجمَّعـوا وأُزيـح السـتار عـن مـسرح كامـل في ذاكرتـه. اتَّسـعت حدقتـاه وتصاعـدت رغبتـه في الركـض عـلى مَـد بطنـه دون توقـف إلى أن يصـل أو ينقطـع قلبـه لـولا أنـه - مسـكين الحـج فـلاح، جلـد وعظـم- كـما كان يصفـه أهـل البلـدة.

طنَّبت عروق رقبته وجحظت عيناه كفناجين القهوة السادة المقلوبة على صينية النحاس المغبرَّة بالسكن بجانب المنقل الذي أمامه. بدا له فلاح في عز شبابه. يا لتلك الأيام! لقد منحتْك الحِجة والسن لقباً جليلا. صحيح أن الجميع هنا يحترمونك، وهذا يُعدُّ امتيازاً في هذه الأيام، إلا أن تلك التي أدبرت خير ألف مرة. كنتَ في طنبوز عزّك يا فلاح، تصول وتجول. رأى نفسه على ظهر الحمرا يكرُّ ويفر. تنتهي الأمشاط الخمسة التي كان يتحزَّم بها وتظل أم اصبع سلاحاً يمسكها من فوهتها ويهوي بها على رقاب المقاتلين، ويبقى "عيانه" هو هو، ذلك المقتل، صرصور الأذن. هوى بيده لأسفل. شاهده الحاضرون.

- بسم الله الرحمن الرحيم. قال أحدهم كمن يحاول طرد شيطان تلبَّس الحج فلاح فجأة وتساءل آخر هامسا:

- خاف الله الحج فلاح خرفن؟

تنبَّه الحج فلاح، فأمسك الملقط وحرَّك به بقايا جمرات كان قد غرزها في السكن ليطيل عمرها حتى نهاية السهرة.

- أُهرج يا حجي، خاطبه أحدهم.

- والله يا أبو قاسم، والهرج للجميع، ما أنا عارف منين أبدأ.

(2)

- هَب الهوا يا ياسين يا عذاب الدرَّاسين.

ردَّدها حمدان مع كل دورة للوح الدراس المرصَّع بالحجارة السوداء البركانية المخشرمة على "الطرْحة" طوال حياته الممتده رغم أنفه. كم مرة قلتَها يا حمدان؟ إن المرة الوحيدة التي وقف فيها حظك هي عندما خلقك الله لطخة، لا تقرأ ولا تكتب ولا تعرف الحساب والعد. كانت المئة رقمه القياسي وقد حطَّمه منذ أمد وارتاح، وفوق ذلك هو، هو اللانهاية. كل ما هو فوق المئة كثير ولا يُطال، إنه الأزل... لكنني سمعت ذات مرة خطيب الجامع يقول إن سنة البعض بألف سنة مما تعدُّون. كم هذا الألف يا ترى...؟ هل هو أكثر من مئة أم أقل..؟ ومن هم هؤلاء..؟ ألست أنت المقصود يا حمدان..؟ لا بد أنك منهم؟

- هَب الهوا يا ياسين..

مَن هو ياسين؟ لابد أنه أنت وأمثالك ياحمدان. ففي الشتاء تحرث وتبذر. طول المربعانية في عز دين الشراقي تتجمد أطرافك، تصير حطبة مثل عود الحراث الذي تقبض عليه. في الربيع تُعشّب الزرع وتحمل العشب، خيشة على الحمار وخيشة على ظهرك. وفي الصيف، عفوك يا رب، في الصيف تحل اللعنة، أُحرث وادرس لبطرس. منذ فتحتَ عينيك على هذه الدنيا الخدَّاعة، وأنت تسمع هذا المثل. هل وُجد أحد قبلك يحرث ويدرس لبطرس....؟ ومن هو بطرس هذا؟ الشيخ مجلي؟ الآغة فخرالدين؟ أخ.. عالنص يا حمدان.. بعوِّض الله. عالثلث يا حمدان..

بعـوِّض اللـه. عالربـع يـا حمـدان.. مرابعـي يـا حمـدان؟ بعـوض اللـه. عالكوبة يـا حمـدان. لبطـرس يـا حمـدان. لمـاذا لا تمـوت يـا حمـدان؟
- هب الهوا يا ياسين.

رددهـا حمـدان منـذ وقـف عـلى اللـوح أول مـرة، عندمـا كان في السادسـة مـن عمـره.. كان والـده يعتـبر ذلـك مسـاعدة لـه عـلى الشـقاء، بينـما كان هـو يعتـبر اللـوح لعبـة يحلـم بالحصـول عليهـا ويبـكي. لكـن أبـاه قـضى عـلى ذلـك الحلـم، إذ أخـذ يطالبـه بذلـك. لم يعـرف يومهـا أن أبـاه يعتـبره معونـة هامـة تمكِّنـه مـن قلـب الطرحـة دون أن يضطـر لوقـف العمـل. كان قصـيرا ذلـك الوقـت الـذي مـرَّ قبـل أن يصبـح وقوفـه عـلى اللـوح عملاً، ثـم لعنـة ظلـت تتلبسـه كجنِّـي.

وقفـت الصغـيرة حلـوة عـلى اللـوح. أمسـكت بالحبـل بينـما أمسـكت أمهـا كرمـى باللجـام وقـادت الفـرَس. دارت بهـدوء عـلى الطـرف الشرقـي مـن الطرحـة بينـما شـغل والدهـا بقلـب طرفهـا الغـربي.
- هـب الهـوا يـا ياسـين، طـار صـوت الصغـيرة كعصفـورة تتـدرب عـلى الغنـاء. لم تـدرِ لحظتهـا أنهـا تتـدرب عـلى الشـقاء. أحـسَّ بـأن أصابـع الشـاعوب انغـرزت في طبلـة أذنـه. كان قـد أسـماها حلـوة أمـلاً في أن تعيـش حيـاة حلـوة، وليـس كحياتـه. مـا أحـلاك يـا حلـوة! مـا أشـقاك يـا حلـوة!

- حلوة، يا ويلي عليكِ، تمتم في سرِّه. تذكَّر أنه أب لخمس بنات والسادسة، يعلم الله، على الطريق. لو يرزقه الله ولداً لأعانه على شقاء الدنيا. استغاث بكل أولياء الله الصالحين دون جدوى. ياما استنجد بالشيخ ارشيد الذي سطَّر له الحُجب والأوراد الكثيرة، بلا فائدة.

- هذه إرادة الله، قال في نفسه. أطبق قبضتيه على عصا "الشاعوب". غرَزه في الطرحة. أطبق فكيه مثل كماشة. اصطكتْ أسنانه كضبع كاسر، فخرجت مخنوقة كما لو كانت من قاع بطنه، من جوف الطرحة.

- يا عذاب الدرَّاسين، ورفع الشاعوب كمن قلب الطرحه بأكملها بضربة واحدة، فأحسَّ بأن "معلاقه" قُطع. صار يلهث. اصفرَّ وجهه وبدأ العرق يتصَّبب، من كل شعرة نقطة. أوقف الشاعوب على الطرحه بوضع عمودي واتَّكأ عليه. مسح جبهته بسبابته اليمنى ونفَضها على القش ثم مسحها بسرواله وفكَّر.

- عليش مستعجل يا حمدان؟ سأل نفسه.

نظر إلى بيدر جاره الشرقي فوجده كما هو، لم يشرع صاحبه بالعمل. هزَّ رأسه ثم قال في نفسه.

- كعادته أبو سالم، آخر من يدرس القش كي يلمَّ كل "عُور" البيادر الغربية شرق "عواذر" بيدره، مسكين.

قـرر تسريـع العمـل لعلَّـه يتمكـن مـن إخفـاء المونـة والبـذار قبـل مجـيء الشـيخ مجـلي، نفـخ في قبضتـه اليـسرى ثـم في اليمنـي، نـزعَ الشـاعوب مـن قلـب الطرحـة واسـتأنف العمـل.

(3)

- هب الهوا يا مكاري، أنشدَ أحد عبيد الشيخ مجلي.

- كيلـة بـلا مصـاري، ردَّ عليـه آخـر، وهـما يعبِّئـان محصـول القمـح في "العـدول"، بينـما وقـف الأغـا فخـر الديـن وخمسـة مـن الجندرمـة بخيولهـم. كانـت حلـوة تتأهـب لفتـح فـرج ثوبهـا الصينـي لصـاع الخـضر، برَكـة تشـتري بـه راحـة وبسـكوت مـن دكانـة أبـو ناصـوح، لكـن المنظـر أفزعهـا فتراجعـتْ. تـرك الدراسـون بيادرهـم وتجمَّعـوا عـلى بيـدر حمـدان وقرفصـوا حـول الصُبَّة. ترجَّـل الخيالـة، فتَّـل الآغـا شـاربيه ولـوَّح بكرباجـه في الهـواء.

- إنت. صاح الآغا بأحد الفلاحين.

- أيوه يا أفندي.

- اربُط الخيل على بيدر شعير، فنفذَّ الفلاح على الفور.

- وانت. حضِّر الغدا.

- حـاضر يـا أفنـدي، وأدار ظهـره قاصـداً الـدار. فكَّـر في الأمـر، كيـف سـيتدبره؟ كالعـادة سـيلجأ إلى أهـل القريـة، فهـم في هـذا متعاونـون.

- نـص مصيبـة، قـال في نفسـه. ثـم تذكَّـر الموسـم الفائـت يـوم أمـر الآغـا عمـه يوسـف بتحضـير الغـداء، كانـت مهمتـه يومهـا أسـهل. كان يصـبُّ المـاء عـلى أيـدي الضيـوف. لا تـزال عبـارات الآغـا تـرنُّ في أذنيـه:

- معـزِّب، إشـوي المعـلاق، معـزِّب ديـر سـمن، معـزب هـات شـاي، معـزب هـات بطيـخ. وعندمـا أُصيـب بالتخمـة ولم يجـد مـا يطلبـه، صـاح.
- معزِّب، روح وتعال.
- يا مصيبتي!
نظـر الدراسـون في وجـوه بعضهـم بعضـا، ثـم تعلَّقـت عيونهـم بالصُبـة التـي بـدأت بالتناقـص.
- شرَقها القرد، همس أحدهم.
- والحبل على الجرار، أردفَ آخر.

نهـض حمـدان وقـد صعـد كل مـا تبقـى مـن دم في عروقـه إلى عينيـه، وبـدأ يرتجـف ويتصلـب كمـن أصابتـه نوبـة صرع. حمـل الشـاعوب ونظـر إلى الوحـش الجاثـم عـلى الصبـة، ثـم نقـل نظـره إلى الشـيخ مجـلي، فـإلى الآغـا، فـإلى الجندرمـة. فهـمَ الدراسـون. ضغـط المقرفـص إلى جانبـه عـلى سـاقه بشـدة وهمـس:
- امسح وجهك بالرحمن، بينما أتاه صوت زوجته.
- حمـدان! فتراخـى ورمـى الشـاعوب. نـادى حلـوة وأرسـلها إلى دار أبـو نـاصر لتخـبره بـأن الشـيخ مجـلي والآغـا ومعهـما خمسـة خيالـة طبُّـوا عـلى البيـادر.

عـادت حلـوة. تحلَّـق الدراسـون حولهـا. تأفَّـف حمـدان عندمـا سـمع الـرد. كان يعرفـه مسـبقاً، كانـوا جميعـاً يعرفونـه. ففـي كل مـرة:
- الرأي يا أبو ناصر؟ يسألونه.

- البعير لا يُحمَّل واقفاً.

- وبعدين يا أبو ناصر؟

- سن اللبن يشلعه سن العظم.

لقد سمعوا تلك العبارات عشرات المرات وهي لا تُضيف لهم إلا الحيرة.

- والعمل يا جماعة؟ تساءل حمدان وهو يكاد ينفجر.

- أمرنا لله، قال أحدهم. وحاول آخر تخفيف الوطأة:

- على كل حال، الشيخ مجلي جنة، أرحم من غيره. وحدَّثهم عن الشيخ دميثان الذي أصابه مرض ثقيل فأنذر لوجه الله تعالى أن يحصِّل من أهل قرية هام خمسمائة قرش عن كل عتبة إن هو قام من مرضه سالماً غانماً، وكيف أوفى بنذره فعلاً عندما شفي، وعن أحد عبيد الشيخ طراد الذي لم يكن يرضى من أهل بشرى بغير الراحة المقلية بالسمن البلدي فطوراً له.

- يا لطيف، مِن علامات الساعة، علَّق أحدهم.

(4)

سرى الخبر في البلد بسرعة. أبو ناصر سيجتمع برجال البلد في المضافة بعد صلاة العصر، يجب أن يحضر الجميع، والحاضر يعلم الغائب. إذن حمدان معهم، وسيحضر بالطبع.

غصَّت المضافة بالحضور وامتلأت العريشة بهم. تنحنح أبو ناصر قبل أن يهتف:

- يا رجال، لقد ناخَ بعيرهم، فحمِّلوه.
بـدت الفرحـة عـلى الوجـوه وارتسـمت عليهـا ابتسـامات لم يحملهـا وجـه أي منهـم منـذ زمـن بعيـد.
- ويجب أن يقف بعيرنا.
ارتفعـت روحهـم وانبثقـت منهـا حركـة. صـار لابتسـاماتهم صـوت لأول مـرة في حياتهـم.
- ويجب أن يبقى واقفاً، فلا تنسوا أن البعير لا يُحمَّل واقفاً.
همَّت النفوس بالانقباض عند سماعهم العبارة الأخيرة لولا أنه كرر:
- لقد ناخ بعيرهم ويجب أن ينهض بعيرنا. ثم أضاف:
- غداً مع أذان الفجر، وشرحَ الخطة.

في المسـاء أرسـل أبـو نـاصر في طلـب كرمى. وكرمـى هذه امـرأة ولا كل النسـاء. معتـدَّة بنفسـها، متكـبرة، صارمـة لا تـرقُّ إلا حـين تداهمهـا الذاكـرة. عندهـا تتحـول إلى عصفـورة بريـش الحـرام. كانـت كعناقيـد الكرمـة، كداليـة، بـل ككـرم قائـم بذاتـه. كانـت أجمـل بنـات البلـد. حـين تمـشي في طريـق الملأيـات بثوبهـا المطـرز وعُرجتهـا المرصَّعـة بالرشـاديات وحطتهـا الحمـراء المشربشـة، كان شـباب القريـة يحومـون حولهـا كالفـراش. كانـت حلـماً للجميـع. حمـدان كان الوحيـد الـذي لم يتسـع خيالـه لذلـك الحلـم الكبـير. عـشرات الشـباب تقدمـوا لخطبتهـا لكنهـا صدَّتهـم، فقـد كانـت تشـعر بـأن مكانهـا بـين النجـوم، وأن فارسـها ليـس شـاباً يـدوس عـلى طـين الأرض، بـل شـهاب يجـب أن يبـزغ مـن بـين النجـوم. كانـت تؤمـن أن السـماء فـوق الأرض ولا تنطبـق عليهـا،

وستظل كذلك إلى الأبد، بالرغم من أن الله سبحانه وتعالى رفعها بغير عمَد. ثم كَبُر الرجال وأدركوا أن أحلامهم أشبه بالمستحيلات فكفُّوا عن طلبها. وكَبُرت كرمى، كبرت كثيراً قبل أن "يطخَّها الجِنت". ولما استيقظت بعد وفاة والديها ويئست من فارس النجوم، وساءت أحوالها، كان صحوها متأخراً جداً. لا بد من الستر يا كرمى على كتاب الله وسنة رسوله، ولم تجد أمامها سوى حمدان. حين اقترحه عليها أبو ناصر، فكَّرت مليّاً. حمدان؟ صامت كرمى وأفطرت على بصلة، فإلى طين الأرض يا كرمى، حيث لا مكان للشهب، قالت لنفسها.

كانت تعلم أنها لن تعثر تحت دكة سروالة على غير الحرث والتبن. لكن لا بد من الستر، كانت تقول، وتعزم على تنظيفه، فهو أولى على أية حال من قمل رجال مجلي وصيبانهم.
كان حمدان يلوك كردوشه الثاني أمام "الفدّان" عندما كلَّمه أبو ناصر بالأمر. قرَط لسانه لحظتها من هول المفاجأة.
- كرمى لي أنا الحرَّاث الدرَّاس؟ تساءل في نفسه. لو أنه على الأقل حلم بها يوما كغيره من شباب القرية! لكنه استدرك:
- هل للحراث مكان في عالم الأحلام؟
كان عليه أن يصدق، فأبو ناصر لا يمزح، وخاصة مع أمثاله. كان عليه أن يقتنع، فليس على الله بعيد، سبحانه يكسر جملاً ليتعشَّى واوي.

وقفتْ في عريشة المضافة ونادت بصوت مهيض لكن متماسك:
- يا أبو ناصر، تذكَّرتْ أيام العز. كانت الوحيدة بين نساء القرية ورجالها التي تجرؤ على مخاطبته باسمه، وليس بلقبه.
- سقى الله، قالت في نفسها.
- يا هلا بكرمى، جاءها صوت أبو ناصر.
أخبرها بموعد أذان الفجر. ناوَلها زر نيلة وطلب منها أن تدور في شوارع البلد وتضع به علامة على ظهر كل رجل تقع عليه عينها بعد الأذان. قال إن مهمتها جليلة وإنه يعتمد عليها دون غيرها.
- انتِ بتسوي سُربة زلم يا كرمى. قال أبو ناصر مودعاً.

قبل طلوع الشمس كان الجيش قد عسكرَ على حدود أم البيار. أصدر القائد تعليماته. أبلغ أحد قطاريز الشيخ مجلي بالخبر، فقال ضاحكاً.
- إي بالله! جيش الحراثين والدراسين، ثم أضاف مخاطباً حرمته الأخيرة التي كانت قد سطتْ على ليلة ضُرتها.
- وراسك يا قطنة لأجيبلك رأسه الليلة، أقسم برأسها أن يقطع رأس أبو ناصر.
ابتسمت قطنة، فالليلة المقبلة إذن ستكون لها. وبراحة يدها اليمنى شدَّته إليها بشبق لم يستيقظ بعد، وقالت:
- فحل ولد فحل.

وقف أبو ناصر بخشوع. يمَّم وجهه صوب الشرق، بدا كمن يزرع عينيه في كل شبر، تحركت شفتاه. ظن الجنود للوهلة الأولى أن قائدهم يصلي للشرق.. أُم البيار على مد البصر رآها أبو ناصر تفتح ذراعيها تطوِّقهم بهما جميعاً. ستتفجر آبارها مياهاً تصعد إلى سطح الأرض كالبارودة الصواري التي يحملها، وسيغبُّ من شهدها الجميع كالجِمال. وقمحها كالجمر، كحبات العقيق في المسابح الألفية.

تصوَّر حمدان كيف سيكون البيدر المقبل له، بيدره هو وكرمى. سيملأ بطنه حتى شدقيه بخبز القمح الصافي، كل رغيف كالمصحف. تذكَّر كل السنين السالفة بكردوشها الجافر، فشعر بجفاف يشق حلقه كالسكين. ولولا أنه نعمة وانه خشي أن يجعل العلي القدير فمه عند أذنه، لقال إنه يشبه "طبُّوع الجلِّة".

حدَّق أبو ناصر في هلال الشمس البازغ، ثم في بساط الأرض الفسيح وأطلق في سماء أم البيار صيحته الأولى أنْ تفجَّري يا أم البيار وانبتي شهداً ومصاحف.

- يا شيخ ارشيد.

وصلَ الفزيع من قرى النعيمة وايدون والحصن والصريح وحوارة وبشرى وسال ومن سائر قرى الشمال وعشائره. رفعَ أبو ناصر رأسه للشمس، شدَّد قبضته على بارودة الصواري ذات السبطانة الطويلة، وجَّه فوَّهتها

إلى أعـلى وأطلـق منهـا رصاصـة واحـدة في الهـواء تحيـة لقـوات الحراثـين والدراسـين التـي وصلـت إلى أرض المعركـة، بينـما أنشـد لهـم شـاعرهم الدوقـراني "قصيـد" أُم البيـار:

"إهل الحصن واهل الصريح نمورة وباقي القرايا ضربها بصَّالِ."

ردَّده جيش الحراثين وشنَّ هجومه الأخير.

عندمـا نُقلـت لهـا آخـر كلـمات حمـدان والرصاصـة الملعونـة تخـترق رأسـه: "إبـشْري يـا كرمـى بالبيـدر" لم تشـق ثوبهـا ولم تلطـم خديْهـا، بـل بكـتْ بصمـت، بكـت كرمـى كثيـراً عـلى صـدره حتـى امتزجـت دموعهـا بدمـه بالتـبن الميـت في شـعر صـدره.

(5)

مـرَّت دقائـق قبـل أن يفطـن الجالسـون في المضافـة إلى أن الحـج فـلاح أتـمَّ قصتـه دون أن يحـسَّ بـأن إحـدى الجمـرات سـقطت عـلى أذيـال ثوبـه، فحـذَّره راعـي الربابـة الـذي كان يرافـق الحكايـة بالقصيـد:

- النار هبَّت بثوبك.

- ثوبك.. ردد الحج فلاح.

- حقيقة ما هيه قصيد

- قصيد..

- وييييي....حزَّ على الربابة،

بينما تردَّد في أرجاء المضافة:

- البعير لا يُحمَّل واقفاً،

- سن اللبن يشلعه سن العظم.

---

1. أُم البيار: الموقع الذي دارت فيه المعركة الفاصلة التي خاضها الفلاحون في شمال الأردن بقيادة فواز البركات الزعبي للتحرر من عنف ونهب شيوخ العشائر البدو ويقع جنوب شرق الرمثا.

هام، بشرى، سال، حوارة، الحصن ،الصريح، إيدون والنعيمة، من قرى محافظة اربد، تقع جنوب شرق الرمثا.

مواسم أبو موسى المَرْضي

أبـو مـوسى المـرضي، كـما كان يقـول عـن نفسـه، حـمار عـرس، للـماء والحطـب. ياما خـدَم أهـل القريـة، كان خادمـاً للصغـير قبـل الكبـير وللمـرأة قبـل الرجل. أبـو مـوسى كان الـشيء الوحيـد المشـاع في القريـة. لمـاذا؟ هـو نفسـه لا يعـرف عـلى وجـه الدقـة. يقـول إنـه منـذ أُزيـل القطـن عـن عينيـه، وهـو عـلى هـذه الحـال، وإن هـذه طينتـه كالتربـة التـي يفلحهـا، لا يمكـن تفسـيرها. أبـو مـوسى لم يـدعْ عمـلاً أو أحـداً يعتـب عليـه. صحيـح أنهـم كانـوا يجـودون عليـه مـن بعـض الموجـود - ثُمنيـة قمـح فطـرة رمضـان، زكاة المحصـول عـلى البيـدر "مـن الجمـل إذنُـه"، باكيـت حلـو ناشـد، صينيـة طبيـخ بُرغـل مـع مليحيـه جميـد مـع ضلـع مِدهـن في الأعـراس، كمشـة قُطّـين أو راحـة حلقـوم مـع طـورة خبـز مدهـون بزيـت بلـدي عـلى المقـبرة، مِعـلاق الأضحيـة بـدون الكبـدة في عيـد الأضحـى عندمـا يكلفـه صاحبهـا، لأمانتـه وبراءتـه وضعـف بـصره، باختيـار حصصهـا الثـلاث المتقاربـة، فيطلـب منـه أن يديـر وجهـه نحـو الحائـط ويسـأله، واضعـاً يـده عـلى إحـدى الحصـص في كل مـرة:

- هاي هاي هاي لمين؟

للأغربون، يجيبه.

- هاي هاي هاي لمين؟

- للأقربون.

هاي هاي هاي لمين؟

لأهل الدار.

لكن ذلك كله كان نقطة في بحر عطائه.

(1)

رأى أبـو مـوسى في منامـه، خـير اللهـمَّ اجعلـه خـير، أن لـه زوجـة وأطفـالاً وقطعـة أرض وفدَّانـاً. كان الطقـس دافئـاً نسـبياً عـلى غـير العـادة. ربـط الفـدَّان وقبـض عـلى عـود الحـراث بقـوَّة ووخـز الثـور الأكـبر. اسـتعدَّت أم مـوسى، أفرغـت صاعـاً كامـلاً مـن العـدس المنقَّـى عـلى الطبليـة في فـرج ثوبهـا. أمسـكت طـرف الثـوب بيدهـا اليـسرى. مـلأت راحـة يدهـا اليمنـى، "وبسـم اللـه" بـدأت تبـذر العـدس، بينـما انتـشر أطفالهـا مـن حولهـما كالحَجـل. فجأةً توقـف الثـور الكبـير، حـرد، وخـزَه أبـو مـوسى فصـار يتململ ويحـاول الإفـلات مـن قرينـه خـارج التلـم. وخـزه مـرة أخـرى: أبُّـود وسـبع جـدود. أشـبعه وخـزاً، فهـاج الثـور ومـاج. كان أحـد الأطفـال أمامـه. أنـزل رأسـه وقرنيـه وهجـم عليـه. ركـض أبـو مـوسى وحـالَ بينـه وبـين الطفـل: "هُـوَّوه، هـوَّوه" بـلا فائـدة. اقـترب الثـور كثـيراً. لامـس القرنـان بطنـه، صـاح أبـو مـوسى بمـلء فكّيـه، كاد أن يبقـر بطنـه ويقذفـه في الهـواء. عندمـا أيقظـه النـداء ..

- أبو موسى، يا أبو موسى.

- هووَّه، هووَّه. أيوة، أيوة"، أفاق مذعوراً.

- أبـو مـوسى صايـر كُبـار، بنـام للضحـى وشمسـته عاليـة، قـال مطلـق الـذي كان يؤمـن بـأن مـن تطلـع عليـه الشـمس وهـو في بيتـه ليـس فلاحـاً.

- ذبحني يا عمي يا مطلق، لكن الله ستر.
أدرك مطلق أنه كابوس، فأشار عليه بأن يرشق وجهه بحفنة ماء ويمسحه بالرحمن، ليطرد عنه الشيطان.
رشقَ أبو موسى وجهه بحفنة ماء من التنكة.
- أح .. ح..ح.

حشر أبو موسى جسمه الخشن في معطف صوف انجليزي رث، كان جاره الذي يعمل في الأي بي سي قد تصدَّق به عليه. ولفَّ رأسه بحطة سوداء بدون عقال قبل أن تصبح رمزاً سياسياً بعقود، تلثَّم بها، ثم خرج مع مطلق مع طلوع الضوء، وهو ما لا يعتبره مطلق سَرْوَةَ. في الطريق إلى الحقل سردَ له قصة الثور ذي القرنين الذي داهمه في الكابوس، واستكثر خيره لأنه أيقظه في الوقت المناسب، وإلا لكان الآن في خبر كان. ضحك مطلق وقال ممازحاً:
- ألم تسمع بالمثل الذي يقول إن التلم الأعوج من الثور الكبير؟

كان الوقت كوانين، وبالتحديد مربعانية. كانت الدنيا بيضا بيضا من الصقيع، والبرد يقصُّ المسمار، وما يسيل من أنف أبو موسى يتجمَّد فوق شاربيه الأشعثيْن. استعجله مطلق قائلاً:
- أُربط بكِّير بتحل بكير.
- رَمَقَ أبو موسى الكيس المحمول على ظهر البهيم، وقال مستنكراً:
- يا رجل خاف الله، بذار اثنعشر صاع عدس بيوم واحد؟

- توكَّل على الله يا زلمة، اللي بنقص بخلص.
وصلا إلى رأس المارس.
- أُربط.

ربـط أبـو مـوسى الفـدان، بـدأ بتحميـة يديـه، نفـخ فيهـما ودلكهـما عـدة مـرات. أحـسَّ بأنهـما كالمـبرد مـن سُـمك طبقـة القشـب عليهـما. امتعـض قليـلاً، ثـم بـدأ. قفـز إلى رأسـه الموسـم المقبـل، انتقـل بذهنـه إلى الحصيـدة والبيـادر. كاد الشـيطان أن يوسـوس في صـدره فيتمنـى أن تكـون سـنة قحـط عـلى عبـاده كـي يرتـاح مـن همِّهـا، لـولا أن هـداه اللـه، فاسـتغفره وخـزى الشـيطان.

(2)

العـرس لحامـد، ولكـن لأبـو مـوسى فيه قـرص، إنه يحـب التخصـص في الأعراس، فهـو لا يدبـك ولا يغنـي ولا يلعـب عـلى الشـبَّابة ولا يـرد عليهـا. طيلـة ليـالي التعليلـة السـبع يكتفـي بالتفـرج لأن تخصصـه الصيـاح عـلى النقـوط في الليلـة الأخـيرة. ليلـة الدخلـة بسـطَ عـلى الأرض منديـلاً أبيـض ناصعـاً كان العريـس قـد اشـتراه لهـذه الغايـة، بـل لغايـة أخـرى في نفسـه أهـم. فـرَدَه في صينيـة تحـت اللوكـس أبـو شـنبر المعلَّـق عـلى سـيبة الحديـد وسـط حلقـة الدبكـة، وقـف في مواجهتـه وبـدأ باسـتقبال النقـوط. سـاد الهـدوء والانتبـاه وتقـدَّم المهنئـون...
- خلَـف اللـه عليـك يـا فـلان الفـلاني، إنـت وأولادك وإخوانـك وقرايبـك جميـع

محبّة للنبي الشفيع. عشرة قروش .. عشرين .. ربع نيرة .. نص نيرة ورق.. وعندما تقع في يده ورقة خضراء، كان يبتهج بها. يرفعها بيده إلى أعلى ويلوِّح بها للجمهور في حلقة المحتفلين، ويحرص على أن تراه الصبايا الواقفات في الخلف، ربما للفت انتباههن لنفسه ولدوره المهم والمميز، لعلَّ وعسى.

في آخر الليل جمعَ كومة من الشلنات، زيَّنتها بضع أوراق خضراء، نظر إليها بتفحُّص وحسرة وربَّما بحسد، وقال في نفسه:

- آه لو انها إلي لطقّيتها جوازة بكرة من الصبح!

لكن كيف له أن يحقِّق ما حقَّقه حامد، جندي حاف، كل طلعة هلال يدس في جيب بدلته العسكرية أربعة دنانير ونصف عداً ونقداً. وعروسه هذه سيقبض عنها دينارين علاوة، هذا غير نافي المعسكر والعلاج وغيارين واحد صيفي وأخر شتوي. عقدَ المنديل وناوَله لحامد:

- الله يطرح لك البركة يا عريس.

أحضر الشباب الحناء. وقفَ أبو موسى على مسافة منهم يتفرَّج، وأخذ يستمع إلى أغاني الحناء. انطلقت الترويدة:

- سَبَّل عيونه ومد إيده يحنُّونه.

فأغمض عينيه ومدَّ يده، غير أنَّ أحداً لم يضع الحناء في خنصره. بلعَ ريقه كمن يبلع سكيناً.

- ويش هالغزال الذي راحوا يصيدونه.

صدمته حقيقة أن أحداً لن يذهب ليصطاد له غزالاً أصلاً، ولا حتى أرنباً.

فمـزَّق السـكين حلقـه. كظـم غيظـه ومضى إلى خُشَّـته متسـللاً.
في اليـوم التـالي، قُبيـل الزَّفـة، أدخلـوا حامـد إلى الحـمام وأغلقـوا البـاب خلفهـم. وقـف أبـو مـوسى في الخـارج. أحـسَّ بالخجـل مـن فكـرة أن يتعـرَّى الشـخص أمـام جمهـور. سـمع وشّـة الببـور وطقطقـة الدلـو واللقـن والإبريـق. ثـم صـوت دَلْـك الصابونـة عـلى الليفـة ودلـك الليفـة عـلى جلـد العريـس. تـسرّب البخـار السـاخن الممتـزج برائحـة صابـون اللوكـس الـذي كان حامـد قـد اشـتراه مـن نـافي الكتيبـة خصيصـاً لهـذه المناسـبة، غطَّـى البخـار وجهـه، فأحـسَّ بخـدر ممتـع، وسرَح في الخيـال: لم تلامـس الليفـة جلـده طـوال عمـره، ومـاذا يمكـن أن تفعـل الليفـة في مثـل جلـده؟ شـعرَ بـأن مـا في داخلـه قـد بـدا للعيـان، وكأنـه يقلـب جيـب سروالـه ليفرغـه مـن التـبن. حـين مازَحـه أحدهـم قائـلاً بـأن حجـراً أزرق مخـشرم لا يقطـع في جلـده، نظـر إلى أسـفل فـرأى الميـاه المختلطـة برغـوة الصابـون ووسـخ العريـس وعرقـه تسـيل تحـت قدميـه خارجـة مـن مـصرف الغرفـة، رفـع قدمـه عـن مجـرى المـاء وخطـا خطـوة قصـيرة إلى الخلـف.
فُتـح البـاب عـلى مصراعيـه، وطلـع الزيـن مـن الحـمَّام، صلُّـوا عـلى خـير الأنـام، لابسـاً كل مـا عـلى الحبـل. ورائحـة أسـانس العطـر البخـارى تفـوح منـه، ويعبـق بهـا الهـواء مـن حولـه. وقـد تأبَّـط ذراعيـه شـابَّان مـن أقاربـه، وسـارا بـه في مقدمـة الرجـال.
- "عريسـنا زيـن الشـباب .. زيـن الشـباب عريسـنا"، ردَّد الرجـال خلفهـم، وزغـردت النسـاء وهاهـتْ.

سـار أبـو مـوسى في أطـراف مجموعـة الرجـال منفـرداً. فـلا هـو عريـس ولا زيـن الشـباب، يـا حـسرة. تلهَّـف عـلى أن يصبـح يومـاً مـا عريسـاً. ولـو حتـى بـدون طنّـة ورنّـة، لكـن هيهـات. فركبَـه الهـمُّ والغـمُّ. ولم تخـف وطأتهـما عـلى روحـه الكسـيرة إلا عندمـا شـاهد الخيزرانـات المنقوعـة بالمـاء تهـوي عـلى قدمـي حامـد كي يقـوِّي قلبـه ويتمكَّـن مـن قطـع رأس القـط مـن أوَّل ليلـة، ويصبـغ ذلـك المنديـل الأبيـض الناصـع بالأحمـر القـاني. لحظتهـا رفـع كفَّيـه إلى السـماء حامـداً ربَّـه عـلى أن ليـس لـه في الطيبـات نصيـب.

(3)

رمضان كريم ...

- طُـب طُـب طُـب .. يـا نايـم وحِّـد اللـه .. طـب طـب طـب.. يـا نايـم وحّـد الدايـم". كان هـذا هـو الإيقـاع الوحيـد الـذي يدقُّـه أبـو مـوسى، وهـو يـدور في الحـارات ليوقـظ الصائمـين وقـت السـحور. وعنـد كل بيـت يتوقـف هنيهـة وينقـر بعصـاه عـلى سـطله عـدة نقـرات متلاحقـة وسريعـة. ويمـدُّ لفـظ الجلالـة إلى أن يفتـح أهـل البيـت بابهـم ويناولـوه كـسرة خبـز أو قطعـة قمرديـن أو شـقفة حـلاوة، أو يكتفـوا برفـع فتلـة الـسراج دون أن يفتحـوا البـاب إشـعاراً لـه بأنهـم اسـتيقظوا، فينبثـق نـور خافـت عـبر شـقوق البـاب يسـتأنس بـه ثـم يتابـع سـيره. الجميـع يفعلـون ذلـك مـا عـدا أبـو قاسـم، فهو لا يفتـح بابـه ولا يرفـع فتلـة سراجـه. تضايـقَ أبـو مـوسى وقـرّر أن "يداويـه"، فصـار يقفـز عـن منطقـة بيتـه أو يمتنـع عـن التطبيـل عندمـا يقـترب منـه أمـلاً في أن "تـروح عليـه نومـة" فيصـوم دون سـحور ويعـاني الجـوع والعطـش

في اليـوم التـالي، أو لا يقـوى عـلى الصيـام لأنـه يحـب بطنـه أكـثر مـن أي شيء آخـر، فيدفـع كفَّـارة، إطعـام سـتين مسـكيناً، وهـو عقـاب ليـس بوسـعه تحمُّلـه، ويضطـر إلى حمـل وزره إلى يـوم يلقـى وجـه ربـه.

بعـد صـلاة العـصر يجلـس الشـيوخ تحـت جـدار الجامـع، يتحدثـون ويلعبـون المنقلـة ليسـلّوا صيامهـم بانتظـار أذان المغـرب أو مدفـع الإفطـار الـذي يُـضرب مـن ظهـر تـل إربـد. ذهـب أبـو مـوسى ليطمـئن عـلى نجاعـة "دوائـه" لأبـو قاسـم. طـرح عليهـم السـلام ..

- السـ ...

- وعليكم السـ ...

جلـس أبـو مـوسى معهـم، تفحَّـص هدفـه أبـو قاسـم الـذي كان منهمـكاً في اللعـب. دقـق النظـر في شـفتيه لعلَّـه يتبـيَّن أن ريقـه ناشـف. فبـادره قائـلاً أن صـوت سـطله الليلـة الماضيـة أطرشـه. فقـد كان عاليـاً جـداً بحيـث يسـمعه الواحـد مـن الحـارة الثانيـة.

بردت حماسته قليلاً قليلاً، ثم سأله:

- عطشان؟

- لا.. الحمـد للـه .. وقـال إنـه تسـحَّر قمرديـن ممـروس وارد الشـام، وإنـه لا يـذوق المأكـولات التـي تسـبب العطـش.

- فقسْني الخبيث، قال في نفسه، ثم أضاف في نفسه أيضاً:

- يا لئيم بينك وبين الصيام الله.

-عـال، عـال طُورتـين وجـوز، قـال أبـو قاسـم وهـو يعـدُّ الحصـوات الملسـاء

التـي يجلبهـا الأطفـال لأهاليهـم مـن الـوادي القبـلي. واللـه رجلـك خـضرا يـا أبـو مـوسى، قـال متفاعـلاً مـع اللعـب.

- عليم الله إنك بتغش، علَّق أبو موسى مستفزاً.

- إمسك الجمل وخُذ باجُه، ردَّ ابو قاسم ببرود، وانهمك في عد الحصوات.

ثمـة بعـض البيـوت في أطـراف القريـة لا يصلهـا أبو مـوسى، احتجَّ أحـد أصحابها مـن الجالسـين حـول المنقلـة، وتسـاءل كيـف سـيأخذ فطرتهـم حـلالاً. زعـم أبو مـوسى أنهـم في البـال واللـه، غـير أن الوقـت دائمـاً يباغتـه، فبعـد أن يـدور عـلى كل الحـارات وينـوي الذهـاب إليهـم، ينبلـج الصبـح ويتبـين الخيـط الأبيـض مـن الأسـود. أعطـاه الرجـل حـلاً عصيبـاً:

- بسيطة، ابدأ بحارتنا.

وافق أبو موسى "مكره أخاك لا بطل".

في الحقيقـة لم يكـن التبريـر الـذي قدَّمـه أبـو مـوسى صحيحـاً: إذ إنَّ خلـف ذلـك الرجـل دوَّاس الظلمـة، الـذي كان يجـوب الحـارات بسـطله وعصـاه في انصـاص الليـالي والنـاس نيـام، يقبـعُ قلـب طفـل يمـوت خوفًـا، ورأس يحتشـد بـكل خرافـات القريـة عـن الضبـع والجـن والغولـة والخرابـات المسـكونة.

حـان وقـت السـحور. الليلـة سـيبدأ بأطـراف القريـة، حسـبما وعـد أحـد سـكانها أمـس حـول لعبـة المنقلـة، كلام رجـال. بـدأ بالتطبيـل فـور خروجـه، كلَّـما تقـدَّم خطـوة ازداد خوفـه، فأخـذ يطبِّـل بصـوت أعـلى .. أعـلى .. أعـلى.

قطع النصف الأول من المسافة. دبَّت فيه رجفة، تقدّمْ يا أبو الهمايم، تقدّمْ. سمعَ صوتاً ما، "حسفة". ازدادت الرجفة، تغيَّر الإيقاع وخفَتْ. شاهد "زولاً" ما. سقط السطل من يده اليسرى، ثم العصا من اليمنى، تذكَّر أمراً: كان يسمع أن الضبع يخاف من النار ويهرب.
- القدَّاحة يا أبو موسى، وين القداحة؟

بيديه الاثنتين حاول أن يفتّش جيوبه، غير أن الرجفة لم تمكِّنه من ذلك. ارتفع صوت الحسفة واقترب الزول. وقف شعر رأسه، وبدأت كل فريصة في جسده ترتجف. لم يَقوَ على السيطرة على نفسه. فأدار ظهره، وولَّى هارباً إلى خُشَّته.

في اليوم التالي، عثر أحد أصحاب تلك البيوت على سطْله وعصاه. فذهب إلى خُشّته ليستطلع خبره ويطمئن عليه. قصَّ أبو موسى له قصة طويلة عريضة قال فيها إن الضبع صادفه ليلة أمس، ودارت بينهما رحى معركة حامية الوطيس.
- بالسلاح الأبيض، الله وكيلك. هو بأنيابه ومخالبه، وأنا بالسطل والعصا، هو يرشقني ببوله المخدِّر على وجهي وعيني، وأنا أصدُّه بالحطَّة والعقال. وقال إن الضبع استقتل كي يسلبه عقله ويجعله يسير خلفه إلى مغارته وهو يصيح بلهفة: "وقِّفلي يابه"، وأنه دبَّ الصوت عليهم، إلا أن أحداً منهم لم يفزع له. ولولا مشيئة الله الذي كتب له بقية من الشقاء، ورباطة جأشه وخبرته في مقارعة الضباع، لكانت عظامه وبقايا

ملابسه الآن في مغارة مفتاح بجبل عجلون.
- "توبه، لن أعيدها". خلصَ إلى نتيجة، وأبرأ ذمته تجاه أطراف القرية.

حلَّت آخر ليلة في رمضان. ذهب أبو موسى إلى مضافة المختار، حيث تجمَّع أهالي القرية بانتظار خبر ثبوت العيد. وكلما دخل أحد سأل الحاضرين:
- ها، ثبت العيد؟
- لا.
- ثبت؟
- لا.

قال أحدهم إنه رأى الهلال بأُم عينه، ونقل آخر عن عجوز أنها رأته. وقال ثالث: إنه لا بدَّ أن يكون غداً عيد. فمنذ عشر سنوات وهم يصومون تسعة وعشرين يوماً، ودائماً يلطشون اليوم الأخير، ولو أن قاضي القضاة موجود في إربد وليس في عمان لذهب إلى مقره وأدلى بشهادته أمامه وكسب مكافأة المخمَّسة الحمراء. وتساءل رابع عمَّ إذا ذهبوا إلى قاضي القضاة كمجموعة يا ترى، هل سيعطي كلا منهم خمسة دنانير، أم مخمَّسة واحدة للجميع يقسمونها فيما بينهم؟ ثم عدَل عن رأيه مَخافة أن يختلفوا على قسمتها ويدخلوا في قصة هم بغنى عنها.

قهقـهَ أبـو مصطفـى سـاخراً. وقـد كان دومـاً يتفاخـر أمامهـم بأنـه يفـكُّ الخـط ويقـرأ الجريـدة، فقـد درَس للصـف الرابـع مـع الباشـا لكـن الغنـم والفلاحـة طفسـتْ مواهبـه، وبأنـه زار الشـام، شـامة الدنيـا، وعـرف سر صنـع الزجـاج بالنفـخ. وعندمـا سـألوه مسـتهجنين وسـاخرين كيـف ذلـك، ردَّ عليهـم:

- يعنـي "بـوف بنـورة"، بـوف سراج، "بـوف" قطرميـز، "بـوف" كاسـة شـاي...

وأضاف:

- مسـاكين، جُهّـال، يـا نـاس افهمـوا: السـعودية هـي الـلي بتقـرر العيـد، لا هـلال ولا غـيره. لا تتعبـوا حالكـو.

سهروا تلك الليلة لوقت متأخر بانتظار الخبر الذي جاء:

- غداً آخر أيام شهر رمضان المبارك.

إذن، سيصومون هذه السنة ثلاثين يوماً بالتمام والكمال، الله المستعان.

- هل صدَّقتم؟ قال أبو مصطفى مزهواً بانتصار تحليله.

عـاد الجميـع إلى بيوتهـم، ليأخـذوا غفـوة قبـل السـحور. أمـا أبـو مـوسى فقـد خـشي أن تـروح عليـه نومـة، فقـرر ألا ينـام. وكلهـا سـاعة زمـن ويقـرع سـطله. تمـدَّد عـلى فرشـته، وراح يقلِّـب شـؤون حياتـه وشـجونه حتـى غالبـه النعـاس، وغفا.

في تلـك الليلـة رأى أبـو مـوسى نفسـه وهـو يعمـل "مسـحِّراً" في أحـد شـوارع المدينـة عـلى ضـوء الكهربـاء ويحمـل طبـلاً وعصـا حقيقيـين ينافـس بهـما مدفـع رمضـان الـذي كان يُطلـق مـن ظَهـر تـل إربـد منـذ العهـد العثـماني. رأى نـوراً ينبعـث مـن نافـذة أحـد البيـوت متسـللاً مـن بـين "درفتـي برداية"

لم يشاهد مثلها في القرية. قادَه فضوله إلى الاقتراب. دنا منها، فرأى من الشق الذي يفصل درفتي البرداية ما لم يره في حياته كلها..امرأة في سابع نومة على سرير لا يحلم بالنوم عليه، وقد انحسر عن جسدها اللحاف تماماً. هذه أوَّل مرة في حياته يرى من امرأة أبعد من ثوبها. جحظت عيناه، أحسَّ بأنهما سوف تغادران رأسه وتعبران من درفتي البرداية على جناحيْ النور الخافت. ارتفعت حرارته، صار دمه يغلي وقلبه يخفق في طبلة أذنه. أصبح تنفسه سريعاً وثقيلاً وملأت الحشرجة صدره. سال الزبد من شدقيه. كَبتَ تنفسه كي لا يُسمع. اجتاحت بدنه قشعريرة من شعر رأسه إلى أظافر قدميه. غاب أبو موسى عن الوجود.

(4)

اليوم عيد. وأبو موسى - على غير عادته - مفقود: لم يره أحد في المقبرة، ولم يسمع أحد تطبيله في الليلة الأخيرة. ماذا جرى له؟ يكسب أجراً عند الله من يتفقَّده في مثل هذا اليوم. رأى بعضهم أن يمرَّ عليه في طريق العودة من المقبرة.

- أبو موسى، يا أبو موسى

لا أحد يرد. دقوا بابه بشدة عدة مرات، استيقظ أبو موسى:

- أيوة أيوة

- افتح يا رجل، أرعبتنا. فتح أبو موسى:

- كفى الله الشر؟

- مريض، معي سخونة.

- سلامتك .. كل عام وأنت بخير.
- هيك عالناشف؟ قال، ثم ردَّ عليهم بدون نفْس:
- وانتو بخير.

سـليمة .. لقـد صدَّقـوه عـلى مـا يبـدو، لم يعرفـوا بالأمـر، نحمـدك يـا رب. انـصرف المعايـدون كل إلى أُسرتـه وشـؤونه، وبقـي أبـو مـوسى مدفونـاً في صحـراء وحدتـه. غـير أن النـور الخافـت المتسـلل مـن بـين درفتـي البدايـة اخـترق كل عضـو في جسـمه وألهبـه، فاتخـذ قـراراً لا رجعـة عنـه بالإقـلاع عـن جميـع أعـمال "عشـت": التطبيـل التطوعـي لأهـالي القريـة في رمضـان.. جمـع النقـوط للعرسـان في الأعـراس.. توزيـع لحـم الأضاحـي في عيـد الأضحـى عـن أرواح الآخريـن.. أعـمال "العونـة" في إيـلاف الشـقاء: الحراثـة في الشـتاء والتعشـيب في الربيـع والحصيـدة والبيـادر في الصيـف، وغيرهـا مـن الأعـمال في مواسـم سـد الرمـق والسـخرة المقنَّعـة، وقـرر البحـث عـن بنـت حـلال كباقـي خلـق اللـه مهـما يكـن.

(5)

ذلـك النـور الخافـت المتسـلل مـن بـين درفتـي البدايـة حفـرَ في مُـخّ أبي مـوسى حفـرة عميقـة، لم تسـتطع دملهـا الأيـام، وفتـح بابـاً للريـح لا يسـدُّه سـوى امـرأة كي يهـدأ ويسـتريح. مـن قمـح الفطـرة الـذي جمعـه ثُمنيـة فـوق ثمنيـة، اشـترى عربايـة "دَز" أُم ثلـث عجـال، وبـدأ يسـتخدمها للنقـل.. كيـس طحـين.. بُكسـة خضـار.. نثريـات للدكنجيـة ينقلهـا مـن سـوق إربـد إلى مواقـف باصـات

القـرى، بشـلن، بعـشرة قـروش، يعنـي. وشرع بالبحـث عـن بنـت حـلال. صحيح أنـه خـادم الـكل وحبيـب الـكل والكُلفـة بينـه وبـين النـاس مرفوعـة، ويسـتطيع دخـول أي بيـت في أي وقـت. لكـن أن يزوِّجـه أحدهـم ابنتـه، فتلـك مسـألة أخـرى. أدرك ذلـك تمامـاً، وقـرر أن يبحـث خـارج قريتـه.

لا أحـد يعـرف كيـف وقـع أبـو مـوسى عـلى مَـروة.. عانـس بحيطـان الخمسـين مـن العمـر مـن قريـة مجـاورة، مقطوعـة مـن شـجرة، طيِّبـة ومسـكينة عـلى البرَكة.

- طنجرة ولقَتْ غطاها، قال أهل القرية بخشونة السنتهم.

اليـوم أكمـل أبـو مـوسى نصـف دينـه. صـار لـه امـرأة مثـل بقيـة أهـل القريـة، وصـار بوسـعه أن يحلـف بالطـلاق أمامهـم كذلـك. بـدأ يحسـب حسـاب الغـد لأول مـرة في حياتـه. أشـارت عليـه مـروة بـأن يشـتري لهـا بقـرة، تسـاعدهما عـلى شـقاء الدنيـا. جمـعَ ثمـن البقـرة بالقـرش واللـه، مـن عرقـه المسـفوح عـلى عربايـة الـدز. عندمـا اشـترى البقـرة أصرَّ عـلى أن يسـميها "مـروة" عـلى اسـم زوجتـه تيمُّنـاً بهـا وتدليعـاً لهـا. ولأنهـا صاحبـة الفكـرة ومُلهمتهـا.

مـروة لم تألـف أبـو مـوسى، لكنهـا ألِفـتْ صاحبتهـا مـروة، وتصادقتـا. ذات صبـاح، حـاول أن يحلبهـا فرفسـتْه في وجهـه، ولم يعـد لحلبهـا مـرة أخـرى.

حـين اكتشـفت مـروة الحـدث السـعيد. انتظـرت أبـو مـوسى خـارج الحـوش كـي تـزفَّ لـه النبـأ العظيـم.

- بشارة يا أبو موسى.

- خير إن شاء الله؟

- مروة حبلى.

- حبلى؟

- أيــوه.. قالــت والفــرح يغمرهــا. ثــم ضحكــت حتــى بانــت طاحونتاهــا الوحيدتــان المتبقيتــان في فمهــا. اســتغرب أبــو مــوسى، وتعــثَّر في الــكلام:

- يعني موسى...؟

- لا يـا زلمـه، راح فكـرك لبعيـد، قصـدي...، قالـت بانكسـار وأشـارت بيدهـا إلى البقرة.

- آه! أي قولي معشِّره، علَّق أبو موسى بحزن وزعَل.

- لا، حبلى، هه، أصرَّتْ مروة.

انتظـرا الـولادة بأمـل وقلـق وخـوف، سـهرا معهـا طـوال الليـل. لم يغمـض لهـما جفـن لأن مـروة بِكـر. مـلآ سـماء الـدار بالدعـاء والتهاليـل..

- يا رب عِجلة .. يا رب السلامة، يا رب عِجلة.. يا رب السلامة.. يا رب...

أزفـتْ اللحظـة .. وضعـت مـروة عجلـة .. الحمـد اللـه. سـحبا المولـودة مـن أُمهـا. لكنّهـما في خضـم اللهفـة والفـرح نسـيا الخُلاصـة. نظـرا لـلأم. لم تقـم بلحـس ابنتهـا. دقَّقـا النظـر.. لا حركـة ولا نفَـس. أطلقـا صرخـة تقطـع القلـب.

ارتميـا عليهـا وبكيـا، فاختلطـت دموعهـما بدمهـا وبالعـرق المتصبـب مـن جسـمها، حاولـت مـروة أن تهـدِّئ مـن روع أبـو مـوسى:

- ولا يهمك، مَن خلَّف ما مات، قالت مروة وهي تنشج.

- صحيـح، مـن خلَّـف مـا مـات، ردد أبـو مـوسى. ثـم فطـنَ بعـد لحظـة: لكـن كيـف سـتعيش العِجلـة؟ مَـن سـيرضعها حتـى تصبـح بقـرة تـبرك مطـرح أمهـا؟ فصاح:

- يا خراب بيتَك يا أبو موسى!

- لا تيـأس يـا أبـو مـوسى، ولا تِنـسى إنـه مـروة بَعدْهـا عايشـة، واسَـتْه بحنـان ومسـحت عـن خدَّيْهـا دمعتـين.

الباكور

- خِـش خِـش الباكـور.. خِـش خِـش الباكـور، ردَّد الصبيـة وهـم يزفُّونـه عـلى إيقـاع التنـك والعلـب الفارغـة التـي يلتقطونهـا مـن رابـش "كـم قـرُّوق" * ويملؤونهـا بالحـصى.

- تفو، يلعن اللي بزروكوا.

وكلَّـما ازداد غضبـه وتفتفتـه ورشـق الـرذاذ المنهمـر مـن شـدقيه، ارتفـع صياحهـم وعلـتْ خرخشـة عُلبهـم وانتشـت حماسـتهم لملاحقتـه وحاولـوا خطـف باكـوره المخلـوع مـن غصـن شـجرة بلـوط في أحـراش عجلـون وقـضى أياماً وأسـابيع وهـو يعـدُّه بالسـكين، وخصوصـاً مقبضـه المعقـوف، ليكـون متعـدد الأغـراض كعـصى مـوسى. ولـذا، فإنـه لا يمكـن أن يتخـلَّى عنـه مهـما كلَّفـه الأمـر مـن ثمـن أو وسـيلة، فهـو يتـوكَّأ عليـه ويهـشُّ بـه عـلى هـؤلاء القـرود ولـه فيـه مـآرب أخـرى. وكان كلـما حـاصره الصبيـة يبـدأ بترديـد مـا قالـه مـوسى عـن عصـاه، كان يتأتـئ مثـل مـوسى ويُخطـئ في تـلاوة الآيـة، لكنه لا عُـزوة لـه، ولا أخ كهـارون يشـدُّ أزره ويترجـم لهـؤلاء الشـياطين الصغـار مـا يقـول. ومـع ذلـك كان يكررهـا بصـوت عـالٍ ويشـدِّد عـلى عبـارة "مـآرب أخـرى" وهـو يرفـع الباكـور في وجوههـم ويهجـم عليهـم، فيخافـون ويتعبـون ثـم يعـودون أدراجهـم.

* كامب جورج، معسكر كان تابعا للقوات البريطانية في الاردن، يقع شرقي مدينة اربد.

- تفـو، تابـعَ لوحـده. وأخـذ يلعـن بالسـبع مذاهـب أول مـن أطلـق عليـه هـذا اللقـب "الباكـور". لا بـد أنهـم "قواريـط" المدينـة الأوغـاد، لكـن لمـاذا هـو بالـذات؟ كان يتسـاءل في نفسـه. ألأنـه ابـن قريـة؟ أم لأنـه مميَّـز؟ ومـا الـذي يميـزه يـا تـرى؟ أهـو شـكله الخارجـي الـرث الـذي لا يتسـع لرجاحـة عقلـه؟ هكـذا كان يجيـب نفسـه ويلعـن اليـوم الـذي وُلـد فيـه في القريـة المشـؤومة والدايـة التـي بـشَّرت بـه والشـمس التـي طلعـت عليـه وحتـى ديـك المرحومـة أمـه ذي العـرف الطويـل الأحمـر كالفجلـة الـذي صـاح معلنـا طلوعهـا.

غـاب في المـاضي وراح يتذكـر أيـام العـز ويقـارن بينهـا وبـين أيـام النحـس هـذه مـرَّ شريـط حياتـه القابـع في أسـفل عنقـوره أمـام عينيه.
- رحمة الله عليك يا تكتور، تمتم.

حـين كان يعمـل لـدى الدكتـور رأفـت، كان لـه اسـم يفتخـر ويُنـادى بـه وعائلـة ينتمـي إليهـا. كان في طنبـوز عـزه، يعمـل الكثـير ويعـرف الكثـير، فهـو تمرجـي لهلوبـة، يغـز الأُبـر برشـاقة، وخصوصـاً في الإليـات الورديـة الملزلـزة، ويـرش السـلفات عـلى الجـرح ويلفـه بالشـاش المعقـم، وكأنـه مسـحة رسـول. كان يرتـدي بنطـالاً مـن الجـوخ الإنجليـزي مـن بنطلونـات الدكتـور رأفـت ومريـولاً أبيـض اللـون مثـل البفـت مـن مراييلـه، عندمـا كان أهـل القريـة بالـكاد يجـدون السـروال الكلمنضـة الأسـود أو الـكاكي أبـو دكـة. كان ينظـف العيـادة والمنـزل ويقـضي حوائـج البيـت لحـرم الدكتـور، وينـام في العيـادة عـلى

سريـر حديـدي أبـو زمـبركات، يفـرد ظهـره عـلى اسـتقامته عـلى فرشـة قطـن مـصري طويـل التيلـة، ويضـع رأسـه عـلى مخـدة قطـن مـن النـوع نفسـه، ويتغطَّـى ببطانيـة صـوف فتـاح باشـا.

- سقا الله، راحت، قال لنفسه.

- كله من أولاد الفاعلة التاركة، أضاف.

كان يعـرف أسـماء الخضـار والفواكـه وأصنافهـا وأسـعارها وحتـى طـرق طبخها وتناولهـا، بينـما كان أهـالي القريـة بالـكاد يعرفـون أكـثر مـن العـدس والمجـدرة واللـبن والقثَّـا. كان يعـرف عـن قـرب اللحـم البلـدي الطـازج الـذي كان يُحضره مـن عنـد أبـو أحمـد اللحـام الشـامي بجانـب ببـور الماكنسـت، يعـرف المجروم والمفـروم ورأس العصفـور والشرحـات، يعـرف أصنـاف المأكـولات.. الكبـة كبـة والصفيحـة صفيحـة وزبـادي اللـبن والزلطـة مصفصفـة عالدايـر، وعتبـك عـلى ذراعـك يـا باكـور، في حـين كان أهـل القريـة ينتظـرون حلـول عيـد الأضحـى مـن الحـول للحـول أو يتمنـون لـو "تنـط" بقـرة أو نعجـة أو حتـى عنـزة هرمـة لأحـد أهـالي القريـة فيذبحهـا ويحلـف بالعـلي العظيـم وبحـق 114 سـورة أنهـا "رافسـت" ويبيعهـا بـتراب المصـاري لأبـو سـليمان الدكنجـي، الـذي يحلـف هـو الآخـر عـلى أولاده وبالطـلاق مـن نسـوانه أنـه شـاهدها ترافـس بعينيـه هاتـين اللتـين سـوف يأكلهـما الـدود، فيسـتدينون منـه للبيـدر ليزفِّـروا العيـال، والخطيـة برقبتـه...

- آه ولَّت، أولاد الفاعلة التاركة.

ساعةَ فاضتْ روح الدكتور رأفت إلى بارئها، أحسَّ الباكور بأن روحه معلقة بشعره وأن رأسه يكاد ينفصل عن جسمه. شغَّل ذاكرته، فوجد نفسه وحيداً على ظهر هذا الكوكب، لا بيت ولا زوجة ولا أولاد ولا أصدقاء ولا مَن يحزنون. انتظر مغيب الشمس وتسلل إلى القرية، طاف في أزقتها المظلمة، صحيح أنها قريته ومسقط رأس سابع جد له، إلا أنه شعر بغربة عنها، غربة مخيفة. قبل ساعات كان في جنة عدن.. الماء بالمواسير، النور بكبسة زر، الشوارع مزفَّتة تلحس عنها العسل .. دنيا ثانية أحس بالإعياء فاستقر في أقرب خرابة.. توسَّد ذراعه ونام كالقتيل.

الحج أبو جابر أشفق عليه. يملك أرضاً يزرعها قمحاً وشعيراً وقطاني وثلاث بقرات، وهو بحاجة إلى مساعدة للعناية بها، عمل مفصل على قدِّ الباكور، على المونة، ماكل شارب نايم مكسي محذي مع علبة تتن هيشي ودفتر أوتومان. صحيح أنه لا يُقارن بعمله السابق. إلا أنه بالتأكيد أفضل من الجوع والعري والتشرد وقلة الحيلة. قبلَ الباكور بالعمل، فالدنيا هكذا، يوم لك ويوم عليك، وما لبث أن روَّض نفسه له. صار ينام في الخان مع البقرات، غير أنه ميَّز نفسه بفرشة حشاها بالتبن الناعم وقنبور كاز فوق رأسه مباشرة. في الربيع يسرح بالبقرات ويحشُّ لها من بين الزرع. في الصيف والخريف يشلع لها بيوت القثا والبطيخ التي "طيَّرتْ". في الشتاء يكربل لها التبن ويضعه في "الطوالة" مع الشعير. بدأ الباكور يقيم علاقات حميمة مع البقرات، فأطلق على كل منها اسماً يناديها به: فلحى ووضحى وشقورة، وصار لا يسقيها الماء

إلا عـلى الأنغـام، فـكان يصفـر لهـا أثنـاء شربهـا إلى أن ترتـوي، ويستشـيط غضباً إذا مـا أجفلهـا أحـد الأولاد ونغَّـص عليهـا الـشرب خوفاً مـن أن يجـف ضرعهـا أو يفقـس حليبهـا مـاء، وتعـوَّد ألاَّ ينـام في ليـالي الشـتاء الطويلـة إلّا عـلى صـوت اجترارهـا.

كان أسـود مـن القطـران ذلـك اليـوم الـذي جـاء فيـه تاجـر الحـلال ومعـه البـوَّاج عطيـة. دخـلا الخـان وتفحَّصـا البقـرات. أوجـس الباكـور شراً، فشـزَرهما بنظـرات غاضبـة دون أن يحـرك شـفتيه، خرجـا مـن الخـان ووقفـا مـع أبـو جابـر في باحـة الـدار، سـأل التاجـر عـن سـن كل بقـرة وكـم رطـلاً تحلـب ومـاذا تـأكل وكـم سـطل مـاء تـشرب، وهـل يطعمونهـا ملحـاً مـع التـبن. هجـم البـواج عطيـة عـلى أبـو جابـر، مـدَّ لـه يـده وقـال:

- هات إيدك.

وضـع يـده بيـده. عطيـة أحـد البواجـة الشـداد الغـلاظ المسـيطرين عـلى سـوق الحـلال. كفُّـه أضخـم وأقـوى مـن خـف البعـير. وضـع يـده بيـد أبـو جابـر، ونطـقَ:

- الله اعطاك مية؟

- يبعث الله، صرخ الباكور بعصبية

- انت لا تتدخل. أنَّبه أبو جابر، ثم أردف

- يبعث الله

- ميتين

- مش للبيع، صاح الباكور

- أُسكت انت يا باكور
- ضغَط البواج عطية على يده، وزاد عليها
- ثلاثة
- أخ، يبعث الله.
- ثلاثة يا رجل، وضغط بشكل أشد، أحسَّ أبو جابر بأن أصابعه تتكسر في قبضته.
- يبعث الله.

ساق البوّاج عليه الله والأنبياء والصالحين أن ييسر تلك "البيعة"، وضغط بكل قوته على يده.
- أربعة، جيرة الله عن المراجعة.

اصطكَّت أسنانه من الألم، سُمع صوت طقطقة مفاصل أصابعه جمع ما تبقى له من قوة احتمال وقال بصوت خافت ومتقطع:
- الله الميسر.

أقسم البواج بالطلاق ثلاثا وعلى رقبته وأولاده بأنه خارج من دينه إذا استطاع الحصول على هذا السعر لو "جلبها" إلى سوق الحلال.
ألحق يده الأخرى، وبكلتا يديه وبكامل قوتهما ضغط للمرة الأخيرة:
- خمسة، خمسمية يا رجل، بيعة صبحا، قول الله يباركلك.

حُبس الدم في أصابعه، تخدَّرت وصارت زرقاء، خرجت عيناه من محجريهما، احتقن وجهه، احمرَّ وازرقَّ، تصبب العرق من جبهته وفتح فمه، أصبح جسمه بارداً ومتصلباً، وأوشك على التهاوي.

- انطق يا رجل. نص الألف يا ابو جابر، مبلغ كبير، يسِّر أمور ابنك فيه.

- يا عمي مش للبيع، قلنالك مش للبيع، صاح الباكور.

وصل جابر فجأة. انقضَّ على الباكور وصرخ في وجهه:

- سكرٌ بوزك، انت شو دخلك؟ حليب النيدو معبّي السوق.

صمتَ أبو جابر وفكَّر. جابر تخرّج من التوجيهي هذا العام، وهو يريد إرساله إلى الخارج لدراسة الطب. حلم حياته أن يعود إليه وهو دكتور قد الدنيا يفاخر به جميع أهالي القرية. أما هو فقد تقدم في السن، ولم يعد بمقدوره العمل في الفلاحة، وبدأت أمراض الشيخوخة تغزو جسده المتعب كما قال له الطبيب.

- أُنطقها يا أبو جابر، طال عمرك.

فنطقَ كمن يلفظ النفَس الأخير

- الله.. يبارك.. لك.

ارتدَّ الباكور إلى داخله. صحيح، لقد نسي نفسه، فما هو إلا الباكور،

والمـال ليـس مالـه، وصاحـب المـال أولى بـه، إنـه يريـد أن يجْـرد عِلـم في الخـارج، وهـو حـر. ودون أن يفطـن إلى مركوبـه ارتـدى قدميـه العاريتـين وأطلـق سـاقيه في أزقـة القريـة وهـو يـردد بأعـلى صوتـه:
- يا أهالي القرية الكرام، نيدو سريع الذوبان.

فُقـد الباكـور مـن القريـة. فـص ملـح وذاب، قـال بعضهـم إنهـم سـمعوا مـن أحـد البـدو أنـه رآه رؤيـة العـين وليـس قـول مـن قـال عنـد بـدو الرطبـان، وإنـه يعمـل قطـروزاً لـدى الشـيخ. وأكـثر مـن ذلـك، قـال قائـل إن الشـيخ أشـفق عليـه وزوَّجـه إحـدى "إمائـه" وأنجـب منهـا نـص دزينـة قطاريـز.

ونفـى آخـرون الخـبر وعـرُّوه مـن الصحـة تمامـاً، وقالـوا إن الضبـاع أكلتـه مـن زمـان وعظامـه صـارت مكاحـل. أمـا الأطفـال فقـد فقـدوا مصـدراً مهـماً مـن مصـادر تسـليتهم وخوفهـم. كان آخـر مَـن رأى الباكـور هـو طافـش الـذي يسـكن قـرب الحـدود.
- لوين يا مسهِّل، سأله طافش.
- إلى بـلاد اللـه الواسـعة، رد الباكـور، وقـد بـدا عليـه البـؤس، ومـضى في سـبيله. كان يعتقـد أن بـلاد اللـه هـي بـلاد العـرب وأنهـا واسـعة فعـلاً، يمكنهـا، عـلى الأقـل، أن تتسـع لبدنـه النحيـل وباكـوره.

لم يكـن يفهـم في الخرائـط، فمـشى حيـث قادتـه طريـق المهربـين. عابـراً لحـدود لم يعرفهـا مـن قبـل. عـلى ضفتـي الحـدود حـلَّ ضيفـا معـزَّزا مكرَّمـا

جـداً، وقـد لمـس ذلـك بكلتـا يديـه ورجليـه ورأسـه وجنباتـه ومـا خلـق اللـه لـه. عـلى ضفتـي الحـدود كان المشـهد يخلـب اللـب ويعقـد اللسـان، فلـم يعـد يعـرف رأسـه مـن رجليـه ولا أيهـا مـن أيهـا.

- مَن أنت؟

- مواطن عربي.

- ما اسمك؟

- الباكور.

_ ماذا تحمل؟

- باكور.

- اسمك باكور وحامل باكور؟ ها..ها..ها..

أُخبط.

- هم سموُّني باكور.

- مَن هم؟

- قواريط البين.

أُخبط.

-أنت جاسوس؟

- لا، شو يعني جاسوس؟

أُخبط.

مَن أرسلك؟

- ماحدا.

أُخبط.

- ما هي مهمتك؟
- أنا زلمة طاشّ على باب الله.
أُخبط.. أخبط..أخبط..
غـاب عـن الوعـي، تقاذفـوه، وألقـوا بـه في أرض خاليـة في منطقـة منزوعـة السـلاح.

بعـد فـترة طويلـة لم يُعـرف أيـن كان ومـاذا فعـل خلالهـا، ظهـر الباكـور فجـأة، وقـد فقـدَ باكـوره. نبَشـه الصبيـة مـن الخرابـات، بينـما كانـوا ينبشـون الكعـاكل السـمينة التـي تجـذب طيـور الحجـل لفخاخهـم.
- الأوغاد الصغار، قال الباكور عندما عثروا عليه.
- خش خش.. الباكور إجا..خش خش.. الباكور إجا، رحَّب به الأولاد.
- قواريط البين، وولَّى هاربا دون أن يلتفت خلفه.

الباكـور يريـد أن يعيـش فقـط، يـأكل ويـشرب ويلبس وينـام ويدخـن، ولم يكن متصلبـاً حيـال ذلـك. فمشـكلة الأكل مقـدور عليهـا.. وجبـة في اليـوم تكفـي، أو كل يومـين ثلاثـة.. مـاشي. ومشـكلة المنامـة محلولـة، فخرابـات القريـة مثـل الهـم عـلى القلـب. واللبـاس متوفـر مـن زمـان، فعـلى مـدار السـنة يلبـس كبـوت "ماكـسي" لكعـب رجلـه، ولا أحـد يعـرف مـا تحتـه ولا حتـى إذا مـا كان ثمـة شيء تحتـه. وكان لديـه "غيـار"، يصيِّـف ويشـتِّي كبقيـة خلـق اللـه، في الشـتاء يلبـس كبـوت جيـشي ثقيـل، وفي الصيـف كبـوت جفرديـن خفيـف كان أحـد ضبـاط الجيـش الأردني المتقاعديـن مـن قريتـه قـد تصـدَّق بهـما عليـه،

وقـد أصبـح كلاهـما أقـرب إلى لـوح خشـب تربـلاي لسُـمك طبقـة الوسـخ التـي تغطيهـما. ولذلـك فهـو لا يبـدل كبوتـه إلا مـع الجيـش، في 1 /5 وفي 1 /11، فيعـرف أهـالي القريـة مواعيـد إيلافهـم، رحلتـي الشـتاء والصيـف. وفي هذيـن اليومـين يكـون الباكـور أول مـن يخـرج إلى الشـارع، ويبـدو مختلفـاً قليـلاً، ومزهـواً قليـلاً، يرمـق قامتـه مـن فـوق لتحـت، ويتخيـل نفسـه ضابطـاً برتبـة تـؤدَّى لـه التحيـة العسـكرية، أو عـلى الأقـل جنديـاً "حـاف" يـؤدي التحيـة للضبـاط وهـو يرتـدي زيـاً عسـكرياً مغسـولاً ومكويـاً وبسـطاراً ملمَّعـاً كالمـرآة يحلـق عليـه ذقنـه، ويضـع عـلى رأسـه البوريـه والشـعار، أو الشـماغ الأحمـر والعقـال المعنقـر، وتغنِّـي لـه صبايـا القريـة في الأعـراس:

"يا عسكري يا امباشي لِز فراشك ع فراشي".

التدخـين بالنسـبة للباكـور هـو المتعـة الوحيـدة التـي لا يسـتطيع التضحيـة بهـا، غـير أن هـذه المتعـة ثمنهـا مصـاري، وهـو لا يملـك شروى نقـير، فكيـف التدبـير؟

بـدأ الباكـور يمـد يـده للنـاس، غـير أنـه لم يعتبرهـا يومـا حرفـة ولم يكـن يحنـي هامتـه، كان لـه طريقـة خاصـة في التسـوُّل.

- هات قرش بس، ولا يقبل أكثر.

بالقـرش الأول يشـتري ثـلاث سـكاير سـبورت بـلا فلـتر، ثـم يقعـد في عِـرْق سنسـلة، والسـيجارة مـن أختهـا.

- خش خش.. الباكور إجا..

هـؤلاء الشـياطين يجلبـون لـه وجـع الـرأس ولا بـد مـن التعايـش معهـم ومصادقتهـم. وهـو قـادر عـلى ذلـك، ألم يـبنِ صداقـة مـع البقـرات؟

صـار يـوزع القـروش التـي يشـحدها، عـلى الصبيـة، فتوقفـوا عـن الخشخشـة وبـدأوا يألفونـه ويحبونـه، ثـم ألغـوا عبـارة ترحيبهـم السـمجة السـابقة وصـاروا يلاقونـه في كل مـرة بأهزوجـة ـ:

- يا عمنا يا أبو فدعوس.

جميـل! انـه الآن أبـو كـذا وليـس الباكـور، فتمنـى لـو أنـه يلبـس عقـالا، لـكان عنقَـره فـوراً ومـشى في الأرض مرحـاً.

في كل يـوم جمعـة، في وقـت الصـلاة، كان يذهـب إلى الجامـع الكبـير في وسـط المدينـة ويـوزع القـروش التـي بحوزتـه عـلى الشـحادين الملتصقـين برصيـف الجامـع، ودائمـا مـا يسـمع التعليـق إيـاه:

- إشحد وشحِّد.

لكنـه لم يكـن يأبـه بـه ولا يعـترف بجميلـة أحـد، فقـد كان لـه فلسـفة خاصـة في التسـول، يقـول إنـه يـشرب مـن بـئر جمـع، مـن مـاء ربنـا وليـس مـن حنفيـة أحـد، ولذلـك كان يسـخر مـن طريقـة شـحادي المدينـة ويقلدهـم بنفـس اللحـن "مـن شـان اللـه تعريفـة. زكاة أولادك يـا عـم.. اللـه يسـتر عـلى ولايـاك" ويخـرج العبـارة الأخـيرة بصـوت نسـائي "ويمطُّهـا".

فوجئ الباكور بعميله الدكنجي يبادره:
- وين علمك يا باكور!
ويبلغه بأنه منذ اليوم لن يستطيع الحصول بقرشه لا على ثلاث سكاير ولا على اثنتين، بالكاد على سيكارة واحدة، وفوجئ بالاطفال يتعففون عن قبوله ويؤكدون أن الدكنجية لا يبيعونهم به شيئا، فصار يطلب "شلم صغير" ثم "شلم كبير"، ثم عوَّم الطلب بقوله "بيِّض الكف"، ثم طلعت الربع ليرة والنص ليرة، شي يعرفه وشي ما يعرفه، ويا همَّلالي.

طارت الدنيا ولم يكن بوسع الباكور اللحاق بها، فبدأ يمشي في عرض الطُرق ويترنَّح ذات اليمين وذات الشمال أمام السيارات المارة كالبرق ويردد:
- أولاد الفاعلة التاركة..
- ادعسوا .. ادعسوا .. ادعسوا..
غير أن السواقين ملاعين الوالدين لا يريدون أن يُحسب عليهم الباكور زلمة.

****

[بعد مرور بضع سنوات تحققت رغبة الباكور، إذ صدمته سيارة مجهولة، فسقط في إحدى حفريات مجاري المدينة، ما أدى إلى تحطُّم جمجمته، وفاضت روحه بعد أيام متأثرا بجراحه. ونشرت إحدى الجرائد المحلية في صفحة الحوادث خبراً وجيزاً بفنط صغير مفاده أنه عُثر على جثة

رجـل مسـن مجهـول الهويـة في حفريـات مجـاري المدينـة، وشرعـت السـلطات المختصـة بالتحقيـق في الحادثـة للتعـرف عـلى هويـة المتـوفي والكشـف عـن ملابسـات وفاتـه.]

العثور على رسالة مفقودة من مذكرات رفيق مغمور

تقديم القصة

[تدور مَشاهد/ أحداث هذه القصة في أماكن ثلاثة: مكتب رئيس قسم مكافحة الأحزاب الهدَّامة (مكتب رئيس القسم)، وغرفة اجتماعات حزبية-لأي حزب أو تنظيم سياسي- (غرفة الاجتماعات)، ومقهى شعبي وسط البلد- أي وسط بلد وفي أي بلد (المقهى الشعبي). ويتم التنقل بين هذه الأماكن بدون فواصل أو مقدمات أحياناً. والنصوص الواردة في الرسالة المفقودة التي عُثر عليها تُكتب داخل علامات تنصيص وبخط أسود لتمييزها عن بقية الكلام. والرسالة، في القصة، مُصاغة بضمير المتكلم، ويمكن أن تُصاغ بضمير الغائب أو حتى المخاطَب.]

[لا تضحكوا عليَّ، لأنني لا أعرف كيف أبدأ ولا من أين أبدأ. وفي الحقيقة أنا مُحرج، محرج بصحيح، فهذه هي المرة الأولى التي أكتب فيها مذكراتي، وأنتم لا تعرفوني حق المعرفة. أنا رجل مغمور، لم أدخل في حساب أحد، يعني صفر على الشمال كما تقولون، أنا العبد الفقير إلى رحمته تعالى أبو صعب، وأبو صعب هذا ليس اسمي الحقيقي، بل هو اسمي الحركي الذي عُرفت به طوال حياتي. حتى أمي كانت تناديني به، ربما لأنني ابنها الوحيد الذي نذرتْ سبعة نذور تضرُّعاً إلى العليِّ القدير على كل شيء أن يرزقها بولد، وأرادت أن أكبر وأصبح رجلاً ولا كل الرجال

بسرعة. ولا أدري حتى الآن ما إذا كان لي من اسمي هذا نصيب. هل أنا صعب المراس أم سهل الانقياد؟ هل لي في العير و/أو في النفير، أم "لا للهدَّة ولا للسدَّة" كما كان والدي يرددها في كل مناسبة. وكنت أفتقر إلى الجرأة الكافية لدحض رأيه. لكن بيني وبين نفسي كنت أعترف بصحته. يقولون إن فلاناً أصاب كبد الحقيقة، إلا أنني أعتقد أن الحقيقة هي التي تصيب كبد فلان. أتظاهر أمامه وأدَّعي أمام والدتي بأنني أسدُّ بوزي لأنه أبي، فتهدِّئني بحنان لكن بحسم:

- إنه أبوك يا أبو صعب. فأجد فرصة لمواراة جُبني وأُسارع إلى القول:

- هذا ما يقصم ظهري يا أمي. فأشعرُ بعدها بأن الله كفاني شر القتال وخرجتُ من المعركة بدون هزيمة أو بنصف هزيمة على الأقل، أو بهزيمة أبوية، أي مشرِّفة. وبدون لف أو دوَران، حفظتُ ماء وجهي.

صفر على الشمال؟ سنوات عديدة ومديدة عشتُها كذلك، وعاشت في حلقي غصَّة، كنتُ خلالها أفكر وأتساءل:

- كيف يمكن أن أكون شيئاً؟ شخصاً ذا شأن يُشار له بالبنان، بأي أُصبع، لا يهمُّ، ولا تهمُّني صفاته، حسنةً كانت أم سيئة. المهم أن أكون مع أولئك الذين يعرفهم جميع الناس ولا يعرفون إلا القليل من الناس. يا سلام يا أبو صعب! ما أحلى التميُّز! لاحظتُ أن العديد من مشاهير العالم كتبوا مذكراتهم. وبما أن الدنيا واقفة على رأسها وأنا لا أقوى على معاكستها وإيقافها على قدميها، فقد قررت أن أكتب مذكراتي أولاً، وبعدها يمكن أن أصبح من المشاهير، ولا ضير من قول الحقائق أحياناً

وتأليفها أحياناً أخرى، وأن أعتمد على الذاكرة مرة وعلى الرأي الذاتي مرة أخرى، وأن أكون موضوعياً حيناً وأنطق عن الهوى حيناً آخر، أو أن أنطق الحكمة بأثر رجعي. لا بأس، فمعظم المجايلين لي قضوا نحبهم وبعضهم طواه النسيان أو ابتُليوا بالزهايمر، والأجيال الحالية لا تعرف عني شيئاً ولا يهمُّها من كنتُ في أيام العز الغابر.]

.....

متن القصة

ناخَ رئيس القسم على كرسيه الفرَّار كبعير هرم فُسخ للتو عن ظهره حمل ملح. لوَّح لمساعديه بمغلف كاكي. استعرضَ وجوههم. أسند ظهره على الكرسي مُبعِداً كرشه عن حافة مكتبه. قذف المغلف على طاولة مكتبه. رسم ابتسامه انتصار تحت شاربيه المعقوفين إلى أعلى، فبدا كصقر خشبي الجناحين، وخاطبهم:

- أخبار سارة، قالها بالإنجليزية (جود نيوز) لقد حمل لنا هدهد سليمان عليه السلام على جناحيه المقدَّسيْن عرش بلقيس وكنوزها.

- يسلم الهدهد وجناحاه اللذان يطوفان في السماوات والأرض بحثاً عن الأخبار،علَّق أحد المساعدين.

- ومنقاره الذي ينقر به المعلومة بكل خفة ورشاقة كحبة قمح، علَّق آخر.

- ومخالبه التي ينشبها فيها ككماشة فولاذية، أضاف ثالث.

- بل سليمان نفسه عليه السلام، أجملَ رابع.

- لكن في أي ملف سيدي؟ سأل الأول، فأجاب رئيس القسم بنبرة تميل

إلى الحـدَّة.
- أي ملف؟
- نعم، خرجت من أكثر من فم، وبهزٍّ أكثر من رأس.

أمسـكَ رئيـس القسـم بالمغلـف. لـوَّح بـه مـرة أخـرى. سـألهم عـمَّ إذا كانـت لديهـم فكـرة عـن محتوياتـه. ودون أن ينتظـر جواباً فضَّـه بعنـف، فهـو معتـاد عـلى فـض الأفـواه والمظاهـرات، وأخـرج منـه مجموعـة أوراق مطويـة، ثـم أجـاب نفسـه:
- إنـه يحتـوي عـلى مقتـل ذلـك الصعلـوك، نهايتـه. أوراق ذات أهميـة قصـوى، فيهـا نجـدُ ضالَّتنـا، والأهـم مـن ذلـك كلـه أنهـا سـتسرُّ المعلـم، قالهـا بالإنجليزيـة "بيـغ بـوس" .

ابتسـمَ الجميـع، وشـعروا بالنجـاح في فـك شـيفرة العـدو وتحقيـق اخـتراق في صفوفـه، وبـدتْ عـلى وجوههـم علامـات الارتيـاح، ففـي سـعادة المعلـم تكمـن سـعادتهم.
- الأخ عاشـق، تابـع رئيـس القسـم، وضحـك باسـتهزاء. هـذه يـا سـادة يـا كـرام رسـالة غـرام.. غـرااام- شـدَّد عـلى الكلمـة الأخـيرة وأطـال لفـظ مقطعهـا الثـاني- مكتوبـة بخـط يـده إلى حبيبتـه ومذيَّلـه باسـمه وتوقيعـه الصريحـيْن، يعنـي لا مجـال لإنكارهـا كـما هـو ديدنـه. قطَّـب فجـأة وارتـدى وجهـه ثـوب الجديَّـة، وقـال بالإنجليزيـة كذلـك:
- "غايـز"، انسـخوا آلاف الصـور عنهـا واعملـوا عـلى توزيعهـا في كل مـكان

وعـلى كل النـاس، احلبوهـا، بـل احلبـوه بهـا.
- نحن لها سيدي، ردَّ أحد المساعدين.

فتح رئيس القسم الرسالة وناولها لأحدهم.
- إقـرأ يـا حجـي- هـذا اسـمه الحـركي، فجميعهـم حجِّيـة- بصـوت عـالٍ وحياتـك، كل كلمـة، مـن الألـف إلى اليـاء، طلـب رئيـس القسـم .
(تُقرأ الرسالة قي وقت واحد في الأماكن الثلاثة)

قرأ الحجي:
"طفلتي الكبيرة...
- لا بسملة ولا حوقلة ولا تحزنون، طبعاً، فهو ملحد وزنديق، علَّق أحد المساعدين في مكتب رئيس القسم مقاطعاً.

اصطنـع أحـد الحزبيـين في غرفـة الاجتماعـات الغضـب، مـع أنـه لم يسـتطع أن يخفـي سروراً خبيثـاً:
- كيـف يسـمح لنفسـه؟ إنـه يـسيء للنضـال المجيـد ويشـوِّه الصـورة الناصعـة التـي أمـضى المناضلـون عقـوداً مـن العذابـات في رسـمها وتثبيتهـا في عيـون الجماهـير وذاكرتهـا.

قهقـهَ أحـد المتحلقـين حـول طاولـة الطرنيـب في المقهـى الشـعبي، وهـو "يفصفـص" بـزر بطيـخ نيء ويرمـي بقـشره خلـف ظهـره عشـوائياً فيسـقط

عـلى رؤوس زبائـن المقهـى أو عـلى أوراق الشـدة أو طـاولات الـنرد، ثـم علَّـق سـاخراً:

- يا حبيبي.

- أول الرقص حنجلة، علَّق آخر.

"...كنـتُ كطفـل بفجاجتـه ومباشرتـه وافتقـاره إلى اللباقـة حـين كلمتـكِ بالأمـر. غـير أن مـا يغفـر لي أن تلـك ذنـوب طفـل. فيـما بعـد لم أدرك عمقـه وصوابـه فحسـب، بـل عشـتُه باللحظـة وقطعتُـه بالخطـوة. كان أول درس تعلمتُـه هـو الحـرص عـلى ألا أخـرج في الممارسـات الصغـيرة عـن المنهـج العـام..."

رفـع أحـد الجالسـين في غرفـة الاجتماعـات كفَّـه الأيمـن كمـن ينـوي أن يحلـف عـلى كتـاب اللـه ليقـول الحقيقـة، ولا شيء غـير الحقيقـة، وقـال:

- هـذه بدايـة خطـيرة. هـا هـو يعـترف بأنـه يخـرج عـن منهجـه العـام. يعنـي بدايـة انحـراف عـن الـصراط المسـتقيم، ألا تـرون يـا رفـاق؟

- انحراف يساري، صنَّفه آخر.

- أنا أُخالفك الرأي، إنه انحراف يميني، قال ثالث.

- يسـاري، يمينـي، لا فـرق. المهـم أنـه انحـراف. فاليسـار الطفـولي واليمـين يلتقيـان في نهايـة الخـط، قـال المسـؤول الحـزبي حاسـماً الخـلاف.

وضع رئيس القسم قدمه اليمنى فوق فخذه الأيسر، وبدأ يهز الكرسي بعجيزته العريضة إلى الخلف وإلى الأمام، وبادر بالقول:
- بداية تبشر بالخير يا شباب، ها هو يبدأ بالابتعاد عن مبادئة المستوردة. وهذا جيد كبداية، قال العبارة الأخيرة بالإنجليزية "سو فار سو جود"، فأبدى مساعدوه إعجابهم بلكنته الأمريكية التي يبدو أنه أتقنها بفضل الدورات التدريبيه العديدة التي التحق بها هناك.

نظر أحد لاعبي الورق المتحلقين حول طاولة الطرنيب إلى وجه شريكه كي يسرق الورق من لغة جسده، فرأى أن وجهه قد ازرقَّ وعينيه قد احمرَّتا كجمرتين. كان يشهق ويهز رأسه بقوة، المسكين نشبت في حلقه قشرة بزر، وهو يجهد للتخلص منها. أح أح تُف تف، تطايرت شظاياها المبللة بلعابه في الهواء ثم استقرت على وجه شريكه. أغمض الأخير عينيه وفمه كي يتفادى الرذاذ، واستلَّ من جيبه "محرَمة" قماش بيضاء كانت أم العيال قد قصَّتْها من قميصه الداخلي المستعمل، ومسحَ بها الرذاذ وشظايا القشر عن وجهه. وبعد أن انتهت الأزمة بسلام، أفرج الشريك الأول عن الكلمات التي منعتها الغصَّة من الخروج:
- الأقوال في واد والأفعال في واد. زلمتنا هستَر.

"... لقد ذكَّرتني بأن الأشياء والظواهر جميعاً، بما فيها المشاعر والعلاقات الإنسانية، لا تظهر في طريقنا كحجر، وإنما تولد وتنمو وتزدهر، وربما تشيخ. وقد نما فيَّ مثل هذا الشعور بسرعة أذهلتني. إنه يتحرك بإيقاع غير عادي. وهذا ما جعلني أتردد وأتباطأ وأؤجل البوح. كنتُ أخشى أن يبدو مبالغاً فيه. هل يثور لديكِ سؤال: لماذا هذا الإيقاع ؟ وما مصدره؟ لن أنتظر الجواب، فقد ثار لديَّ السؤال نفسه. بحثتُ عن جوابه ووضعت يدي عليه.. إنه الحنين يا طفلتي، الحنين الدفين المعتَّق والمقموع ، أُتيح له التنفس فتفجَّر. وأنتِ، ألم تقولي إنك كنت واثقة من أن الحياة على الرغم من كل ما قستْ به عليك، لا يمكن أن تستمر كابوساً ثقيلاً، ولا بدَّ أن تحتفظ لك بخبيئة جميلة وثمينة. ألا يلتقي هذا بصورة قريبة أو بعيدة مع حنيني السحيق؟..."

- إنه يلهث وراء الحب، قال أحد المساعدين، فردَّ رئيس القسم:
- دعوه يلهث، إن شاء الله ينقطع نفَسَه.

وضع أحد الحزبيين في غرفة الاجتماعات ذراعيه على ذراعي الأريكة. أسندَ ظهره إلى ظهرها ومدَّ رجليه إلى مَداهما، ثم رفع رأسه ونطق الجوهرة:

- تليباثي؟ بدأت السوسة تنخر جذور الفلسفة لديه. إنه يقع في المثالية البغيضة.

"... عيناك في الليل بشكل خاص بُحيرتان عميقتان ساحرتان بلا قرار- وأنا بهذا لا أُقلد السيَّاب وإنما أصف كيف أراهما- والقاربان الشراعيان المتنقلان من شاطئ إلى آخر أراهما صدَفتين بحريتين نادرتين. ولعلَّ هذا هو سر خصوصيتهما وقوة جذبهما. إن أقصى ما بوسع الغواص البارع فعله هو أن تلمس أصابعه سطح الصدفتين. وقد انتابني فرح لا يخلو من زهو إذْ تمكنتُ من ذلك..."

صدرتْ تعليقات قصيرة من الأماكن الثلاث:

- غرام في غرام، دَعُوه يتوه فيه.
- غارق في لُجَّة بحر العشق، بحاجة إلى غواص ينتشله منه.
- هلوسة، عليه العَوَض.

"... ليس غريباً إذن أنك تعشقين البحر، فهو يشبه عينيك. فيهما، كما في البحر، تتلاطم موجات السحر والخوف والإقدام والغموض، وليس غريباً أنك تحبين الأصداف، ففيها التوهج ولثم الشُطآن والكنوز..."

- كنوز؟ تساءل أحد الجالسين في غرفة الاجتماعات باستنكار، هل قال كنوز؟ لقد بدأ يتحدث كتاجر.

- كنوز! تمام كنوز، قال رئيس القسم. بدَّل مواقع رجليه، وأضاف:

- اكتشفنا نقطة ضعفه إذن. الكنوز مفتاحه، فلندخل من هذا الباب الذي يسيل له اللُعاب.

- سامعين يا جماعة؟ بحكيلنا عن الاشتراكية وهو يركض وراء الكنوز، قال أحد المتحلقين حول طاولة الطرنيب ، وانفلت في قهقهة مصطنعة، فصار كرشه يعلو ويهبط ويرتطم بحافة الطاولة.

"... شفَتاكِ يا طفلتي منهما ينبعث جميل الكلام وتشرق الضحكة الوديعة. ولحظة تزمِّين شفتيك يطير قلبي من مَسكنه لملاقاتهما، ويهبط كعصفور ظامئ شمَّ رائحة حبات ندى صباحية على بتلاتِ جوريَّة، فأُحسُّ بأن كل ما في جوف الأرض من مياه عذبه يتفجر ينابيع تصبُّ في فمي..."
"... وعندما قلت لك ذات مرة...

لم ينتبه أحد إلى أن الفقرة بأكملها قد انتهت، فقد غاب الجميع في إيحاءاتها. مرَّت أشرطة مصوَّرة أمام عيونهم، لكلٍ شريطه الخاص وما سُجِّل فيه فعلاً أو ما يرغب في تسجيله.

حدَّث أحد الجالسين في غرفة الاجتماعات نفسه:
- لو كنت أُجيدُ صناعة الغزَل كصاحبنا لحوَّمتْ حولي الصبايا كالفراش.

بـدأ يحسـب في شريطـه عـدد الأيـام والشـهور التـي مـرَّت عليـه وهـو يعِـد أم عـادل بـأن يفتحهـا اللـه عليـه، لكنـه لم يجـد فيـه سـوى عبارتهـا المعهـودة: - اللـه يقطعـك يـا أبـو عـادل لا مـن إيـدك ولا مـن حديـدك، مـا إنتـو بتقضوها شرب دخـان وقهـوة وشـاي وحكي سياسـة فـاضي للصبح.

حـاول رئيـس القسـم أن يسـتعرض شريـط ليلـة أمـس، فغشـا عينيـه "غبـاش" بسـبب شـلال "السـكوتش بلـو ليبـل" الفاخـر اللعـين، ولم يـرَ سـوى ناقـة بسـنامين. حـاول أن يتذكـر مـا إذا قـال كلامـاً حلـواً كهـذا الـذي يقولـه هـذا الصعلـوك المسـتفز، لكنـه لم يتذكـر سـوى كلـمات لا تـزال تـرنُّ في أُذنيـه عـن بعـير يرغـي ويزبـد ويجـتر.

تسـللت أيـدي اللاعبـين الأربعـة تحـت طاولـة الطرنيـب. أخـذت الطاولـة تهتـز، واهتـزَّت معهـا الكـرة الأرضيـة. أبرقـت السـماء وأرعـدت وهطـل المطـر، فارتطمـت رؤوسـهم بطاولـة الطرنيـب عـلى ورق الشـدة.

وسادَ صمت مُطبق.

أفـاق جميـع الموجوديـن في الأماكـن الثلاثـة مـن غيبوبتهـم. مـرَّت فـترة قبـل أن تلتقـي عيونهـم. لملمـوا شـتات أنفسـهم وأفكارهـم. عدَّلـوا أوضاعهـم واسـتعدوا للجولـة التاليـة مـن محاكمـة أبـو صعـب.

" ... عندما قلتُ إنني حين أكون معك أتذكَّر ناظم حكمت، فأشعر كأنني في غمرة الفرح الكبير الذي تخلقينه لي أتستَّر على جريمة ما ارتُكبت بحق إنسان ما أو شعب ما في مكان ما. فكيف إذا كانت بلادي مسرحاً لها؟ قلتِ هذا بيان سياسي، وقلتُ بل هو غزَل، ثم اتفقنا على تسميته غزَل يساري أو يسار غِزلي، وضحكنا من الاسم الملفَّق. تحدثنا عن ترتيبات بيتنا المقبل في ظل ضيق الحال، عن البرادي والنوافذ وغرفة النوم والمطبخ والحمام وتفاصيل أخرى، قد تبدو عادية أو تافهة. بالنسبة لي لم يكن ذلك الحديث تافهاً، بل كان دافئاً، أشعرني بأن أحدنا يخصُّ الأخر..."

تمطَّى رئيس القسم وتثاءب، فاندفعت من فمه رائحة السكوتش الممزوجة برائحة السجائر البائتة، فخرجت كلماته مع التثاؤب:
- دعوه يسترخي ويتذوَّق متعة الكسل.

هزَّ أحد الجالسين في غرفة الاجتماعات رأسه وقال:
- إنه ينغمس في الخاص. واضح أنه يريد الاستقرار. والاستقرار كما تعلمون يا رفاق عدو النضال.

"...لا أستطيع أن أُفسر يا جميلتي لماذا على وجه التحديد يقترن عندي الجمال بالبساطة. أعرف أنك جميلة وبسيطة وأنك تنسابين في عروقي انسياباً له خرير هادئ. أنت تملكين ذوقاً جمالياً نادراً مكمِّلاً للحواس

الخمس. تلتقطين بواسطته الجميل عن بُعد. فمن أين لك هذه الأداة النادرة؟ أهي من البرجوازية التابعة في بلادنا؟ مش ممكن، فهذه ليست سوى بغلة مزركشة وركوبة داجنة لسيدها ...“

رئيس القسم يقاطع منفعلاً وكأن البرجوازية أمه وأبوه:
- أنت بغل وأبوك بغل من سلالة البغال.

- يكتفي بشتم البرجوازية ويتركها تفوز بالإبل، علَّق أحد المجتمعين في غرفة الاجتماعات ساخراً.

- أخونا يلعن سنسفيل أبو البرجوازية ويحلم بعيشها الرغيد، علَّق أحد المتحلقين حول طاولة الطرنيب.

بعد تعليقاتهم عاد أبو صعب إلى وصل ما انقطع من رسالته:

”... قلتُ إن البرجوازية المحلية بغلة مزركشة، ومن المؤكد أنها لا تملك هذه الحاسة، فهي مهووسة بالبهرجة فقط. أما الجماهير الشعبية فقد حرمتْها البرجوازية السمسارة، بالكرباج أو بالبانكنوت، من تذوُّق كل جميل...“

صفَّق رئيس القسم بحماسة مفتعلة وكأنه اكتشف أمراً خطيراً.
- عظيـم، عظيـم! هـا هـو يـزدري الجماهـير الشـعبية التـي طالمـا دوَش مخَّنـا في التغنـي بهـا.

نهضَ أحد الجالسين في غرفة الاجتماعات عن أريكته، مستنكراً:
- هاي آخرتها، يحتقر الجماهير ويجرِّدها حتى من الذوق.

- حلـو، ذاب الثلـج وبـان المـرج. انكشـف المناضـل، إنـه يضحـك علينـا نحـن الجماهـير الغلبانـة، قـال أحـد لاعبـي الطرنيـب، وضحـك آخـر مـلء شـدقيه وأسـند ظهـره بقـوة إلى ظهـر الكـرسي حتـى بانـت "الطـارة" العليـا مـن طقـم أسـنانه واندفعـت مـن فمـه عـلى الطاولـة قبـل أن ينقلـب بـه الكـرسي عـلى ظهـره عـلى أرض المقهـى. هـرعَ رواد المقهـى إلى إنقـاذه.
- مسكين انكسر طقم أسنانه، قال أحدهم.

"... مـن أيـن إذن أتيـتِ بهـذه الحاسـة؟ ربمـا ورثتِهـا عـن أصـول منقرضـة سـادت ثـم بادت...هـذه الرقـة، الروعـة، الجاذبيـة، الخجـل، الجـرأة، العفوية معـاً؟ إن مَـن لا يعـرف هـذا المخـزون الجـمالي لديـك، أجـزم أنـه لا يعرفـك. ربمـا أكـون الوحيـد، أو أرغـب في أن أكـون الوحيـد، الـذي يعرفـه ويزهـو بـه. وهـذا مـا يـزوِّدني باسـتمرار بشـحنة النـزوع إلى العلنيـة لأنـه ليـس لدينـا مـا نخجـل منـه لنفعلـه سراً..."

- المـراوغ! هـل يسـهِّل مهمتنـا أم يصعِّبهـا؟ سـأل رئيـس القسـم، فـردَّ أحـد مسـاعديه:

- يسهِّلها سيدي..

- بل يصعِّبها سيدي، قال آخر. فحسمَ رئيس القسم الأمر:

- سري.. علنـي، نصـف سري.. نصـف علنـي، لا يهـم. المهـم أن يظـل تحـت عدسـة هدهـد سـليمان العظيـم.

انتفـض أحـد الجالسـين في غرفـة الاجتماعـات، وبـدا كأنـه ينبِّـه رفاقـه إلى مسـألة بـين السـطور:

- هـل انتبهتـم؟ إنـه يغمـز مـن قنـاة التنظيـم ويسـخر مـن تكتيـك نصـف العلنيـة الـذي اسـتطاع أن يحمـي النصـف الثـاني.

- أيـوة هيـك، يـا عـلى المكشـوف يـا بـلا، قـال أحـد المتحلقـين حـول طاولـة الطرنيـب في المقهـى.

" ... كل مـا فيـكِ خـاص ونـادر. عفويتـك، كيـف أصفهـا؟ إنهـا مـن أبـرز خصائصـك وأكثرهـا دقـةً وتشـابكاً. كنـتُ أظـن أن العفويـة عنـد سـائر البـشر واحـدة، لهـا شـكل واحـد، ويتـم التعامـل معهـا بطريقـة واحـدة. غـير أننـي اكتشـفت أن عفويتـك مـن صنـف آخـر. إيـاك أن تظنـي أننـي أتلاعـب بالألفـاظ .لا، فأنـا هنـا أتوخـى الدقـة يـا عزيـزتي. ومـع هـذه المسـألة تتداخـل أخـرى، أقصـد مسـألة الـذات.. الـذات المعتـدَّة لا المتضخمـة، العاليـة لا المسـتعلية، الغيريـة لا الأنانيـة..."

- تهويمـات، إنـه غـارق في دوامـة الـذات، علَّـق أحـد الجالسـين في غرفـة الاجتماعـات.
- ممتـاز، ضـاع الرجـل، أليـس كذلـك سـيدي؟ سـألَ أحـد المسـاعدين في مكتب رئيس القسـم.

- يضيع، الله لا يرده، أجاب الرئيس.
- طلامس، لم أفهم شيئاً، اعترفَ أحد لاعبي الطرنيب في المقهى .
- طلاسم يا فهيم، وليس طلامس صحَّحَه زميله.

"... وبعـد يـا صديقتـي، أمـا زلـتِ تعتقديـن أننـي جئـتُ متأخـراً؟ ليكـنْ، فأنـا أعتقـد أن هـذا بالـذات هـو مـا جعـل علاقتنـا ضرورة ومحـا فيهـا كل أثـر للصدفـة. وهـو بالـذات مـا سـيجعل نجاحهـا حتميـاً. نحـن مختلفـان؟ صحيـح. نحـن متفقـان؟ صحيـح كذلـك. هـذا مصـدر لا يجـفُّ لإثـراء حياتنـا ورفدهـا بالحيويـة والقـدرة عـلى الاسـتمرار، فنحـن، مـن قبـل ومـن بعـد، حبيبـان..."

مـا أن أنهـى جملتـه الأخـيرة حتـى صـدرت الأحـكام مـن الأماكـن الثلاثـة بصـوت عـالٍ هـزَّ أرجاءهـا جميعـاً:

- صادتْ الفخَّة.
- عظَّم الله أجركم.
- زغرتيله يا هلالة.

["... وختامـاً، أُعلـن عـلى المـلأ أن اسـمي الحقيقـي ليـس أبـو صعـب، بـل "صعـب"، وهـو الاسـم الـذي منحَنـي إيـاه أبي وأمـي قبـل أن تقطـع الدايـة فتحيـة الحبـل الـسُّري بشـبرية والـدي. وقـد شـهدتْ فتحيـة الدايـة أمامـي وهـي تُسْـلم الـروح إلى بارئهـا أنـه عندمـا ناوَلتْنـي أمـي إلى أبي كي يـؤذِّن في أُذنيَّ، وهـو جاثـم عـلى ركبتيـه عنـد رأسـها عـلى " لُبَّـاد" صـوف الجِـمال المزركـش، قـال لي لحظتئـذٍ: يـا ابنـي يـا صعـب، سـيكون لـك مـن اسـمك كل نصيـب."

التوقيع
صعب]

ومضة: مَن أنا؟

كاتب؟ مناضل؟ إنسان؟
أو من اليسار إلى اليمين:
إنسان؟ مناضل؟ كاتب؟

لست هنا بصدد ترتيبها بحسب الأهمية، فأنا ثلاثتهم:
كاتب منذ منتصف الستينيات من القرن المنصرم، خربشَ الشعر، ثم كتب المسرح والقصة القصيرة والمقال الأدبي والبحث السياسي والثقافي.. أسهم في تأسيس رابطة الكتاب الأردنيين المستقلة عن الحكومات المعيَّنة في منتصف السبعينيات.. كاتب مُقلٌّ وكسول، لكن جأدٌّ في ما يكتب.. لا يلهث خلف الجوائز الثقافية المغمَّسة بالنفط.. لا يستجدي المكرُمات ولا يلهف على سماع "يا غُلام أعطه ألف درهم".. لا يعزف اللحن الذي يطلبه المانحون والرعاة..لا يعتنق خرافة الفصل التعسفي بين الثقافي والسياسي، ولا يأبه بالرطانة الثقافية الليبرالية، بل يؤمن بأن للثقافة والمثقفين دوراً ورسالة عظيمَيْن كمتراس في الخط الأمامي للوطن، وحارس لثقافة الشعب وهويته، وحافظ لوجوده الحضاري في متن التاريخ.

مناضل وطني وأممي لا يؤمن بفن الممكن.. أسهم في تأسيس وقيادة عدد من المنظمات السياسية والنقابية.. ابتلعته الزنازين والسجون

و"الاختفاءات" القسرية التي أثقلَ فيها على عائلات أحبائه وأصدقائه في حقبة الأحكام العرفية وقوانين الدفاع المكارثية التي دامت عقوداً.. يتقدَّم الصفوف بجسارة عندما تدلهمُّ الخطوب، ويعود إلى الخلف حين تنفرج.. مستعدٌّ للتضحية، ولا يقبل بدور الضحية..لا يعلن البراءة من تاريخه وخياراته الإرادية، ولا يندم على لحظة من عقود الجمر التي اكتوى بنارها.. لكنه لا يكابر بأخطائه أو يتنصَّل منها.

إنسان زاهد النفس ضامر "الإيغو ego".. يعشق التأمُّل والتفكُّر أكثر من الكلام والخطابة.. يفضِّل فضة الصمت على ذهب الكلام..لا تُغريه الشاشات الفضية أو الذهبية أو الماسية.. تؤرِّقه معضلة التصالح مع الذات، والرضا عن النفس بدون أن تكون "عين الرضا عن كل عيب كليلة".. فكيف يمكنه تحقيق ذلك؟ وهل بوسعه أن يغمض عينيه عنه ويغفو؟ "فلو تُرك القطا لغفا ونام". وما هي الرسالة/العبرة التي سيورِّثها للأجيال القادمة؟ هل من المعقول، مع جَسامة كل تلك التضحيات وفَداحة كل تلك الجرائم لمجرد أنَّ في رأسه رؤية مغايرة بشأن حاضر ومستقبل بلده وشعبه، أن ينضب زيت سراج العمر قبل إحقاق العدالة، وأن يفلت الجاني من العقاب، أو حتى من الاعتراف أو الاعتذار؟ إنها إذاً لقسمة ضِيزى!!